



البحور والأوزان



مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

مختارات

الطيّب صَالح

مختارات

الطيّب صَالح

١

البحور والأوزان

طبعة جديدة مزيدة



مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي

البحور والأوزان

Second Published in February 2010
Copyright © **Abdel - Karim Mirghani - Cultural Center**
Omdurman - Sudan

حقوق النشر محفوظة لمركز عبد الكريم ميرغني الثقافي
أم درمان ـ السودان

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted
in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying,
recording or otherwise, without prior permission
in writing of the publishers

الطبعة الثانية

شباط/ فبراير ٢٠١٠

المحتويات

تمهيـــد

آخر زيارة للراحل الطيب صالح إلى الولايات المتحدة الأميركية كانت في سبتمبر ٢٠٠١م. وقد التقى الطيب هناك من بين من التقى بهم من سودانيين، الأستاذ حسين الخضر الحاج الذي كان يحضر لنيل درجة الدكتوراة في إحدى الجامعات هناك، والذي يشغل حالياً منصب خبير في وكالة الطاقة الأفريقية في الجزائر.

أفاد د. حسين الراحل الطيب أنه جمع كل المقالات التي كتبها الطيب صالح والتي نشرت في مجلة «المجلة»، وأنه يفكر في طباعتها بمجلد. شكره الأخ الطيب، وذكر له أن مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي في أم درمان يعكف في ذلك الوقت في تصنيف المقالات ونشرها في عدد من الكتب.

قام د. حسين مشكوراً، في مطلع ٢٠٠٢م بإرسال مجموعته

الكاملة والتي شملت نحو خمسماية مقالة إلى أسامة محمود صالح في لندن، ذاكراً له ما دار بينه وبين الطيب صالح.

قبل ذلك بسنتين، كنت أحاول أن أقنع الأخ الطيب أن مقالاته عن «منسي» تصلح أن تكون مادة لكتاب لا يقل روعة عن رواياته الأخرى. لم يقتنع الطيب بذلك متعللاً بأنها مجرد مقالات كتبت على فترات متباعدة وقد ينقصها ترابط السرد، ولكنه تحت إلحاحي وافق أن أقوم أنا بتلك المهمة.

استعنت بمجموعة د. حسين، وبدأت في تجميع المقالات الخاصة بـ«منسي» وترتيبها. في غضون ذلك تبين لي أن هناك مجموعات لمقالات متسلسلة عن مواضيع (Themes) مختلفة، كل منها يصلح مادة لكتاب قائم بذاته. بالفعل قمت بعملية التصنيف والتجميع، وقد أسفر ذلك أخيراً على مواد تصلح لتسع كتب (بما فيها «منسي») اخترت لها عناوين مقتبسة من كتابات الطيب نفسه، وسميت المجموعة كلها «مختارات»، واخترت لها صورة كاركتارية للغلاف الأمامي رسمها صديقنا الفنان السوري حسن أدلبي.

في خريف ٢٠٠٤ م أحضرت المواد إلى بيروت وقابلت صديقي الأستاذ رياض نجيب الريس صاحب «دار رياض الريس للكتب والنشر»، وأطلعته عليها وأخبرته أننا ننوي نشر المواد التسع في تسعة كتب باسم المركز. الأخ رياض زميل دراسة في إنجلترا عامي ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠م، وكنا نتشارك السكن في شقة واحدة، وقد سبق أن كلفته بطباعة «الوثائق البريطانية عن السودان» عام ٢٠٠٠م، والتي أنجزها على خير وجه. أول تعليق للأخ رياض

كان: «الحقيقة أنا وعدد من المهتمين بالأدب ظلمنا الطيب صالح باتهامنا له بأنه مقل وكسول: أين وجد الزمن لكتابة كل هذا الكم الهائل؟». ثم أردف قائلاً أنه يفضل أن يقوم «دار رياض الريس للكتب والنشر» بنشر الكتب التسعة لأن الدار تملك شبكة توزيع واسعة في كل البلاد العربية وبعض البلاد الأخرى، الشيء الذي لا يملكه مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي. استصوبت اقتراحه واتصلت بالطيب صالح الذي استحسن أيضاً الاقتراح، وكلفني بالتفاوض مع الأخ رياض على عقد لمدة خمس سنوات.

أُبرم العقد برضا الطرفين وأصدر رياض المختارات التسع في يونيو ٢٠٠٥م، وقد تعاقد معه مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي لشراء خمسماية نسخة من كل كتاب، ثم شحنها فوراً للسودان، وتبعتها كميات مماثلة أكثر من مرة.

كما تم اتفاق لاحق بين الطيب صالح ورياض الريس في خريف ٢٠٠٧م، لإصدار جزء عاشر من المختارات بعنوان «مقدمات الطيب صالح» حوى تسع مقدمات لدواوين وكتب، خمسة منها نشرت لأول مرة في إصدارات مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي. وقد نشر هذا الجزء العاشر في يناير ٢٠٠٨م.

حظيت «المختارات» جميعها بإعجاب منقطع النظير من جميع القراء في السودان والبلاد العربية، واهتماماً بالغاً من الأدباء والنقاد الذين اختلفوا في تحديد جنس أدب «منسي». بعضهم زعم أنها رواية، وبعضهم أكد أنها سيرة ذاتية لـ«منسي» أو للطيب نفسه.

من ناحيته صرّح الطيّب أن «منسي» شخصية حقيقية ما زال بعض

أصدقائه ومعاصريه على قيد الحياة ويشهدون على ما كتبه، ولكن ذلك لم يقنع دعاة الرواية. اكتفى الطيب بالتعليق: «لقد كتبت رواية شخوصها من نسج خيالي (يقصد موسم الهجرة إلى الشمال)، فإذا بالبعض يزعم أنهم شخوص حقيقيون بل بعضهم سمى تلك الشخوص. والآن قمت بكتابة سيرة ذاتية لشخصية حقيقية يشهد عليها العشرات، وإذا ببعضهم يصرّ على أنها رواية خيالية من نسيج أفكاري».

ولكنه كان سعيداً جداً بالنجاح الباهر الذي حظي به كتاب «منسي» وكان يردد: «والله «منسي» عامل عمايل. لقد أربك الناس في حياته، والآن يربكهم في مماته!».

في سبتمبر ٢٠٠٩م، وبعد وفاة الطيب رحمه الله، وبعد انتهاء فترة العقد المبرم مع رياض الريس، قام مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، بالتعاقد مع ورثة المرحوم الطيب ومع وكيلة أعماله الأدبية لطباعة كل أعمال الطيب صالح الأدبية من روايات وقصص قصيرة ومختارات.

فيما يختص بالمختارات رأينا فصل «منسي» ليكون عملاً قائماً بذاته وأضفنا للمختارات جزءاً أولاً يشتمل على مقالات للطيب صالح نشرت في مجلة «المجلة» بعد يونيو ٢٠٠٥م مع مقدمة من البروفيسير عبدالله حمدنا الله، وهذا التمهيد.

كما أضفنا إلى الجزء العاشر مقدمات «مقدمة الطيب صالح لكتاب الروائي التونسي البشير خريف (الدقلة في عراجينها). السبب في استبعاد «منسي» من المختارات، ونشرها كعمل أدبي منفصل. إن

عدداً من الأدباء والنقاد أمثال بروفيسير عبدالله حمدنا الله، ود. ابراهيم القرشي، بروفيسير ابراهيم محمد زين، ود. محمد المهدي بشرى ود. عبدالله علي ابراهيم وآخرون، يرون أن المختارات أعمال أدبية رفيعة لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه بسبب الإقبال الأكبر على «منسي»، وبفصلها عن «منسي» قد تجد الاهتمام اللائق بها.

في طبعة رياض الريس للمختارات سهى عليه أن يفهرسها، ولكننا في هذه الطبعة أعدينا فهرسة لكل كتاب مع فهرسة جامعة للعشرة كتب ونأمل أن يساعد ذلك الدارسين.

محمود صالح عثمان صالح
بيروت فبراير ٢٠١٠م

تقـديــم

أ. د. عبد الله حمدنا الله

هذا بيت القصيد

عبارة يسوقها العرب القدماء، يصادرون بها القصيدة كلها لصالح بيت واحد، يعتقدون أنه أجمل ما في القصيدة، متناسين أن القصيدة بنية حية، تتآزر كلها للتعبير عن وجدان الشاعر، ولإحداث الأثر الفني عند المتلقي.

روايات الطيب صالح توشك أن تكون بيت قصيده، حيث وقف الناس عندها بين الإعجاب والدهشة، وبين الدراسة والتحليل والتعليل والتفسير، وإن تجاوزوها فإلى منسي دون غيره، أما بقية العشرة الأجزاء التي نشرها مركز عبد الكريم ميرغني، بدعم سخي من السيد محمود صالح عثمان صالح، فظلت تنتظر من يلتفت إليها، ليكشف عن جوانب أخرى تضاف إلى الطيب صالح الروائي.

رجل النهضة رحب الاهتمامات، متعدد المناحي، فهو ينظر إلى المجتمع من خارجه، فتبدو له صورته بكل ما فيها من حسنات ومعائب، وحين يكتب تجده كاتباً شاملاً، ولا شك أن الطيب صالح من أولئك الكتاب الشاملين الذين يكتبون في الأدب والثقافة والسياسة والاجتماع، وغايته الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

الطيب صالح في مقالاته التي نشرت في هذه الأجزاء، غيره في رواياته التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، في رواياته أراد أن ينقل السودان إلى العالم الخارجي، بينما في مقالاته أراد أن ينقل العالم الخارجي إلى السودان، في رواياته أراد أن ينقل تجارب إنسانية لقرية عند منحنى النيل، تضاف إلى التجارب الإنسانية التي عرفها العالم من قبل، وحين أدرك العالم أن لهذه التجارب خصوصيتها وإنسانيتها أصبح الطيب صالح أديباً عالمياً يشار إليه ضمن أفضل مائة روائي في تاريخ الرواية العالمية.

بيد أنه في مقالاته نجده رجلاً آخر، حيث كتبها بعد أن أصبح رجلاً كونياً، جوّاب آفاق من شرق الدنيا إلى غربها، لا يستقر في بلد إلا ليغادره إلى غيره، على قلق كأن الريح تحركه يميناً أو شمالاً، ثم هو كتبها بعد أن عمل في المنظمات الدولية، وفي الإعلام الدولي والإقليمي، وبعد أن قرأ عميقاً في الفكر والثقافة الإنسانية، فتمددت رؤيته إلى آفاق أرحب، واستطاع أن يكوّن رؤية واضحة لما ينبغي أن تكون عليه النهضة.

كتب عن السودان من خارجه، لكنه لم يجعله أبداً وراء ظهره، كان دائماً أمامه، يسمعه ويراه ويحسه، وما من ظاهرة تناولها، إلا ربطها بالسودان، معجباً أو ناقداً، أو مقارناً، فهو في دلهي يتذكر

الخرطوم، وحين يكتب عن المتنبئ لا بد أن يتبعه بالحديث عن الحاردلو، كان بكليهما معجباً، وحين يرى ما فعله أولاد حاج الماحي، أو عبد الكريم الكابلي، بالفرنسيين على ضفاف نهر السين، يشعر بالفخر والخيلاء، وحين يتحدث عن كيفية إنشاء الجامعات في بريطانيا، يتبع حديثه ناقداً كيفية إنشاء الجامعات في السودان، وهكذا ما من ظاهرة كونية وقف عليها، إلَّا تناول السودان من خلالها، فكأنه الواصل بين العالم والسودان، والسودان والعالم في ذات الوقت.

يحيرني في الطيب صالح، أنه جمع بين المتناقضات في إلفة وتسامح، دون أن يتناقض هو، لا تحس اضطراباً في تفكيره، أو تنازعاً داخل نفسه، فهو حين يتحدث عن كتاب قرأه، أو قضية عالمية استوعبها، أو ظاهرة خبرها، تشعر كأنه انفصل عن السودان، وأصبح شخصاً آخر، لولا ربطه للظواهر، ثم حين يتحدث عن السودان، تشعر كأنه ماغادره يوماً واحداً، ولا عرف بلداً غيره.

وهو حين يكتب بالفصحى يبلغ بالعبارة أقصى ما تتحمله من فيوض الدلالات، وهو من أبرز الذين استطاعوا أن يحيلوا لغة النثر إلى لغة شعرية، لكنه حين يكتب عن اللغة الدارجة، يتحول إلى بدوي قح، كأنه ما عرف التعليم ولا المدنية، ولا اللغة الفصحى، ولا هو بالكاتب الذائع الصيت.

وقس على ذلك، جزالة أسلوبه وسهولته وعذوبته، اعتداده بنفسه وتواضعه إلخ، وظني أن ذلك راجع إلى سودانيته الصميمة، بل كنت أشعر أنه حين يتحدث عن سودانية صلاح احمد ابراهيم، فكأنه يتحدث عن نفسه.

بقي أمران لا بد من الوقوف عندهما، أولهما اقتراح أتوجه به لباحث نجيب، يريد أن يسجل رسالة لإحراز درجة علمية، أقترح عليه أن يبحث الطيب صالح ناقداً، ففي كتبه نقد كثير، بعضه نقد توجيهي، وبعضه نقد تطبيقي، خاصة نقده للدكتور طه حسين، والدكتور زكي مبارك.

لعله بهذا النقد أراد أن يصل ما بدأه معاوية محمد نور بمشاركته في الحياة الأدبية المصرية عن ثقة واقتدار، ولا اتفق معه حين يجعل محمد أحمد محجوب الأقرب إلى معاوية، الأقرب إليه عندي هو الرجل الذي ظلمناه حياً، ونسيناه ميتاً، محمد عشري الصديق.

الأمر الثاني، هو هذا الايمان العميق، الذي يشع في كل كتبه، وهو إيمان صوفي غيبي خالص، ويبلغ قمة هذا الإيمان حين يتحدث عن حاج الماحي، أو عن بردة البصيري في نقده لزكي مبارك، وحين وجد نفسه في مكة أو المدينة، كثيرة تلك المواضع التي تضرع فيها منكسراً باكياً في خضوع وحسرة كأنه حمل أوزار الناس جميعاً.

المفارقة أني قرأت كل أجزاء كتبه التي تحتوي على نحو ثلاثة آلاف صفحة، فلم أجد كلمة واحدة نابية، أو خادشة للحياء، من التي أخذها بعض المتشددين على لغته في بعض رواياته، والسبب عندي واضح جلي، أنه هنا يتحدث بلسانه لا بلسان شخوصه، ولم يكن من لغته البذاءة والفُحش، لكنه في ذات الوقت لا يستطيع أن يصادر عن شخوص رواياته لغتهم لمجرد أنها ليست لغته.

أحسن السيد محمود صالح عثمان صالح حين قرر إعادة نشر هذه

الكتب، ووضعها تحت أيدي القارئين، وهو بذلك يضيف يداً لأياديه غير المنكورة في إثراء الثقافة السودانية، ويحسن أيضاً في إصراره على تقديم الطيب صالح بكل ضروب فكره وإبداعه، لا برواياته فحسب، عسى أن يجد اهتمام الدارسين والباحثين، وظني أن ذلك كائن.

أثابه الله، وأحسن إليه، وأكثر من أمثاله

درعُ أبي العلاء

يمضي الشيخ العتيد، في عبثه الممتع المفيد، وكأني به جالساً القرفصاء وقت الضحى، في داره المتواضعة في المعرّة، يُملي على أحد تلاميذه، وعلى وجهه السّمح المنبط، ابتسامة ماكرة، وفي قلبه إحساسٌ دافئ بالسعادة كالذي يحسُّه الطفل الذكي وهو يعالج لعبة هندسية معقّدة.

قال رحمه الله وهو يمعن متلذذاً في وصف الدرع:

مــأذيّــةٌ هــمٌّ بــهــا عــايــلٌ
مـن الـقـنـا لا عـاسـلٌ مـن هُـذيـل

دقــت ومــا رقــت ولــكــنّــهــا
جاءت كما راقك ضَحضاح فميل

ها هو ذا الشيخ قد أنتشلنا من السّيل الذي أزعج الضب وزوجته وابنه، وقذف بنا في بلاد هُذيْل.

فسّر الشرّاح أن الدرع الماذيّة هي البيضاء، وأن العسل الماذيّ هو العسل الأبيض. والعاسل الأول محارب يستهدف الدرع ولابسها. والعاسل الثاني يجمع عسل النحل في بلاد هُذيْل، وكانت مشهورة بذلك. والمقصود هنا هو العاسل المحارب لا الذي يجمع العسل. والفيْل هو الماء الضحل. هذا وقبيلة هُذيْل اشتهرت بكثرة شعرائها المجيدين، ومنهم أبو كبير الهُذلي الذي قال:

لـقـد وردتُ الماء لم يـشـرب بـه
بـين الـشـتـاء إلـى شـهـور الـصّـيـف

إلّا عـواسَـلُ كـالمراد مـعـيـدةٌ
بـالـلـيـل مـوْرد مُـتـَفـضِّـف.

والعواسل هنا، هي الذئاب، وأحدها عاسل.

وأبو كبير، يصف ماء آنا مهجوراً، لا ترده إلّا الذئاب بالليل، وقال في أبيات تلي هذين، إنه عافه ولم يشرب منه، رغم شدّة ظمئه. وكانوا يعدّون الصبر على الظمأ خاصة، من علامات الرجولة، كما قال أبو الطيّب:

وأظـمـى فـلا أُبـدي إلـى الماء حـاجـة
ولـلـشـمـس فوق الـيـعْـمّلات لـعـابُ.

ثم يمضي أبو العلاء، فيصف أن الدرع رغم رِقتها فإنّها صلبة قوية،

وأنها ناعمة مثل ماء ضحل. وقالوا إن الفيل هو الماء الذي يجري بين الشجر. ثم قول:

فـمـن لـبـسـطـام بـن قـيـس بـهـا
ذخـيـرةٌ أو عـامـر بـن الـطُّـفـيـل

فـــارســـهـــا يـــســـبـــح في لجة
مـن دجـلـة الـزرقـاء أو مـن دُجَـيْـل.

تصوّر فارساً، لأنه يلبس هذه الدرع، كأنه يسبح في ماء دجلة أو الفرات. وقد أمعن أبو العلاء في تشبيه الدرع بالماء الجاري لنعومتها. ودجيْل، تصغير دجلة هو أحد النهرين، دجلة والفرات.

وفسّر الخوارِزْمي، أن بسطام، بكسر الباء، هو بسطام بن قيص فارس بكر، وكان من فرسان العرب المعدودين في زمانه. وقتله عاصم بن خليفة الضبّي.

وكان عامر بن الطُفيْل من أشجع أهل زمانه وكان يُلقّب بمُلاعِب الأسِنّة. وهو القائل:

وإنــي وإن كـنـت أن سـيّـد عـامـرٍ
وفـارسـهـا المشـهـور في كـل مـوكـب

فـمـا سـوَّدتـنـي عـامـرٌ عـن وراثـةٍ
أبـى الـلـه أن أسـمـو بـأم ولا أب

وكان حين يجتمع الناس للموسم بعكاظ يرسل منادياً ينادي في الناس:

«هل من راجل فأحمله؟ أو جائع فأطعمه؟ أو خائف فأؤمّنه؟»

ويقول أبو العلاء إن هذين الفارسين المُعلّمينْ، لو كانت لهما مثل هذه الدرع، لما قتلا كما حدث لهم.

ثم يقول:

أعـدّهـا الـشـيـخ مـعَـدٌّ لما
يـطـرقـه مـن لـفّ خـيـلٍ بـخـيـل

كـانـت لـهـودٍ عُـدّة قـبـلَ
أديـان يـهـودَ حـدّثـت مـن قُـبـيـل

الشيخ معد، بفتح العين أو سكونها، هو ابن عدنان، من آباء العرب الأولين وكان مشهوراً بالذكاء وحدة الذهن والتقشف في المعيشة. وقول أبي العلاء (من لفّ خيل بخيل) يشير إلى قول الفرار السُلمي:

وكـتـيـبـةٍ لـبّـسْـتُـهـا بـكـتـيـبـةٍ
حتّى إذا التبسَتْ نفضتُ لها يدي.

قال الشارح (وهذا من فصيح الكلام وبديعه). وهو كذلك لعمري. وقول أبي العلاء (لفُّ خيلٍ بخيل) غاية في الحُسن أيضاً.

أراد أبو العلاء أن الشيخ معد، أعد هذه الدرع حين تلتف الكتيبة بالكتيبة في غمار المعارك. وكانت قبله عند هود الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، وقد سبق ديانات اليهود. وكلمة قبيل، تصغير قبل، ثم يقول:

تُعلّم الزّميلَ ضرب ابن
دارة المنايا كسجايا زُمَيل.

وقال الخوارزمي:

«الزّميْل هو الرّذْل الجبان. وابن داره هو سالم بن دارة، ودارة اسم أمه، سميت بذلك لجمالها تشبيهاً لها بدارة القمر، وكانت من بني أسد. وابن دارة من ولد عبدالله بن غطفان بن سعد. وكان هجا بعض بني فزارة هجاء فاحشاً، فقتله بن ابير وقال مفتخراً:

أنا زميْلُ قاتلُ ابن دارة
وغاسلُ المخزاة عن فزارة.

يقول أبو العلاء رحمه الله، أن رجلاً تافهاً صادف اسمه وصفه (زميل) جرّأته هذه الدرع على قتل رجل شريف هو ابن دارة، وأن تلك عادة المنايا، تأخذ الشريف وتترك الرَّذْلَ الزّميْل.

□ □ □

أبو العلاء وعقيل

لَبِس الرجل تلك الدّرع المُحكمَة النسج اللّينة الملمس، فوجد في نفسه القوة والشجاعة والإقدام، وأخذ يضرب في الأرض يطلب السب لزوجه وعياله، قال أبو العلاء:

أسيل مَآقَ العيس في أكحلِ
تنضح ذِفراها بمثل الكُحيل

عن نقلٍ أسأل أو حَذوة
سؤال مُرجي فيله عن نُفيل

والمرءُ يحتالُ ويفتالُ ما
عاش ويأتال بقضد وميّل

قال الشارح إن الإبل إذا تعبت من شدّة السير، تسيل مآقي عيونها

بدمع إذا جفّ صار أسود مثل الكُحيل أي القطران، بعكس الخيل التي إذا جف دمعها صار أبيض، وقوله (في أكحل) أي بحثاً عن نبات أخضر.

وفسر الخوارزمي أن النّفل ضرب من الشجر والحنوة بفتح الهاء المهملة نبت طيب الرائحة.

ونفيل تصغير نفل وهو أيضاً نفيل بن حبيب سيد خثعم وكان دليل أبرهة الحبشي حين سار بالفيلة نحو الكعبة ليهدمها.

والمرء يحتال، من الحيلة، ويفتال من الفيل، ويأتال، من آل يئول، إذا ساس، كل ذلك طلباً للرزق والفلاح والسؤدد لعياله. وقد أوضح الشاعر أكثر في قوله:

والــودُّ غــرّارٌ ونجــوى عــلــيّ
ولــديــه غــيــر نجوى كُــمــيــل.

عليّ هو ابن أبي طالب رضي الله عنه. وكان كميل بن زياد النّخعي من اصحابه المقرّبين، قتله الحجاج بن يوسف. ويقول الخوارزمي في شرح البيت أن الإنسان مشغوف بأبنائه لا ينزل أحداً منزلتهم ولذلك تراه أبداً يسعى لهم بجد واجتهاد. ويضيف الشارح:

(كأنه قال هذه اللاميّة على لسان رجل قام على نفقة عياله).

ربما ذلك، أو ربما اشتاق أبو العلاء للزوج والأبناء!

مـن حـبّ عـبـد الـدّار مـا أبـعـدت
حـبّـي أخـاهـا عـن وصـايـا حُـلـيـل

هذا البيت يختصر قصة عجيبة في حبّ الآباء للأبناء، والقصّة تتعلّق بسدانة الكعبة في الجاهلية. كانت لخزاعة وكان سيد خزاعة حليْل بن حبيْشة. وكانت ابنته حبّى متزوّجة من قصيّ بن كلاب من سادة قريش ولها منه أبناء منهم عبد الدار ابن قصيّ.

لمّا حضرت حُليْل بن حبيشة الوفاة أوصى بحجابة الكعبة إلى ابنه المحترش وكان غائباً، وأعطى المفتاح إلى ابنته حبّى وأوصاها ان تسلّمه إلى أخيها المحترش وأشهد على ذلك رجلاً يدعى أبا غبشان الملكاني وابنها، حفيده عبد الدار بن قصي.

فلما رأى قصي أن حليلاً قد مات، وكان أبناء حليل غيباً عن مكة لوباء أصابهم، طمع قصي أن يجعل سدانة الكعبة عند ابنه عبد الدار، وأخذ يلح على زوجته حبّى وكانت هي أيضاً تميل أن تعطي السدانة لابنها عبد الدار.

فقالت لزوجها قصي:

كيف أصنع بأبي غبشان وهو وصي معي وشاهد علي؟

فقال لها زوجها قصي: (سوف أكفيك أبا غبشان. سوف أحتال عليه وأرضيه حتى يكتم ذلك ويخبر الناس أن حليلاً أوصى بسدانة الكعبة إلى ابن ابنته عبد الدار).

وكذلك فعل قصي مع أبي غبشان وأعطاه ثياباً وأبعده فقبل. وقال الناس (أخسر من صفقة أبي غبشان) فسارت مثلاً.

وقال شاعر في ذلك:

أبـو غُـبـشـانَ أظـلـمُ مـن قـصـيّ
وأظـلـمُ مـن بـنـي فِـهْـرٍ خُـزاعـة

فـلا تـلْـحـوْا قـصـيّـاً في شِـراه
ولـومـوا شـيـخـكـم إذ كـان بـاعـه.

قال أبو العلاء رحمه الله:

والـدهـرُ إعـدامٌ ويـسـرٌ وأبْ
رامٌ ونـهـارٌ ولـيـلُ

يُـفـنـي ولا يُـفـنَـى ويُـبـلـي ولا
يـبـلـى ويـأتـي بـرخـاء وويـل

يُـدعـى الـفـتـي ضـبّـا وفيه نـدى
وواهـبـاً وهـو عـديـل لـنَـيـل

بعد أن تكون ظننت أن أبا العلاء قد فرغ من القصيدة وختمها ببيتين عن الدهر وتقلب أحواله، إذا هو يفاجئك أنه يعود إلى لعبه وجده الذي يشبه المزاح. ويأبى إلا أن يذكرك بالضب الذي بدأ به القصة، هو وحسيله وأم الحسيل!

يخبرك أن الفتى قد يسمى (ضبا) وكانوا يسمون أبناءهم بأسماء الحيوانات. والضب يكره الماء وينفر منه. إنما هذا الضبّ الآدمي، ففيه ندى، أي أنه كريم، والندى اصلاً من الماء. والآخر اسمه واهب وهو في الحقيقة بخيل. ثم يقول:

إن كـلـيـبـاً كـان لـيـث الـشـرى
والـهـجـرس الخادر مـن غـيـر فيل

كليب هو سيّد وائل الذي حرم مواقع القطر وأجار القبرة التي بسببها اشتعلت حرب البسوس نحو أربعين عاماً. وكان ضرب به المثل في العزّة والمنعة فكان يقال (أمنع من كليب وائل). ورغم ذلك كان اسمه كليب وهو تصغير كلب.

والهجرس تعني الثعلب، وهو اسم ابن كليب، الذي نشأ في كنف خاله جساس بن مرة، ولما كبر وعلم ان خاله هو قاتل أبيه، قتله أخذاً لثأره.

كـم ظـبـيـة في أسـد تـعـتـزي
وجـاهـل مـنـتـسـب في عـقـيـل

هي ظبية لكنها بنت أسد، وهو جاهل لكنه من عقيل. وأسد وعقيل قبيلتان.

ويبدو أن أبا العلاء كان معجباً بعقيل، فقد قال يصف فتاة:

تجـل عـن الـرهـط الإمـانـي غـادة
لـهـا مـن عـقـيـل في ممـالـكـهـا رهـطُ

والرهط الإمانيّ إزار من سيور الجلد كانت تلبسه الإماء والفتيات دون البلوغ.

□ □ □

إعْصار من الطّيب

قال الشاعر القرم في تلك القصيدة، التي هي عندي من روائع الشعر العربي، يصف الفتاة المحبوبة:

إذا حملتكِ العيس أوْدى بأيْدها
جلا لكِ حتى ما تكاد به تخطو

والبيت من القصيدة التي يمدح فيها خازن دار العلم ببغداد ومطلعها:

لِمَن جيرة سيموا النوال فلم ينطو
يظلّلهم ما كان ينبته الخطُ

وقد ركب أبو العلاء فيها قافية حرونا فذللها وأسلس قيادها.

قال التبريزي في شرح البيت:

(الأيد القوة، والجلال العِظَم أراد به ها هنا وفور الجسم).

وقال البطليّوسي:

(أودى، ذهب وهلك. والأيد القوة. والجلال ها هنا وفور الجسم وكثرة لحمه. يقول، إذا حملتك العيس ذهب بقوتها ثقل ردفك ووفور جسمك فلا تقدر على الأسرع في المشي).

وقال الخوارزمي:

(عنى بالجلال فخامة الجسم وضخامة البدن. الضمير في (به) يرجع للجلال. هذه السمينة المنعمة لو أدركت زمن محمد بن باه الخوارزمي، لما كانت له معشوقة غيرها، وذلك أن محمداً هذا كان من كبراء خوارزم وأمرائها، وقد بلغ به السمن والضخامة إلى حيث لم يستقل به مركوب ولا قدر هو نفسه على الركوب. وإنما كان يحمل في عجلة...).

وأقول، رغم احترامي العظيم لهؤلاء الأساتذة الأعلام الأجلاء، هل يعقل أن يكون حنين الشاعر كل ذلك الحنين الممض، لأمرأة تعجز الإبل الشداد عن حملها لضخامتها وكأنها من نساء الكاتب الفرنسي القديم (رابلي) أو بعض نساء الأمريكان في هذا الزمان؟

فلنمعن النظر في بقية أوصاف المرأة المشتهاة لنرى هل يوافق وصف الشاعر لها أوصاف هؤلاء الأساتذة.

منذ البداية، يصف الشاعر المرأة المعشوقة بأنها تعيش في عزة ومنعة تحت ظلال السيوف والرماح، وهي كالتي وصفها أبو الطيّب بقوله:

ومـــا شـــرقـــي بـــالماء لا تـــذكـــراً
لماء بـــه أهـــل الحبـــيـــب نـــزول

يـــحـــرمـــه لمع الأســـنـــة فـــوقـــه
فـــلـــيـــس لـــظـــمـــآن إلـــيـــه وصـــول

امرأة كهذي، قد تكون مرفهة، ولكنها لا تكون خاملة.

ويقول أبو العلاء أيضاً في وصفها:

تجـلّ عـن الـرّهـط الإمـانـيّ غـادةٌ
لـهـا مـن عـقـيـل في ممـالـكـهـا رهـط.

وصفها الشاعر بالجلال، ونزهها عن أن تلبس (الرهط) الذي تلبسه الإماء، وهو أزار من سيور الجلد كانت تلبسه الإماء والفتيات دون البلوغ. إنها امرأة شريفة من (عقيل) وهي قبيلة عزيزة اصلاً ولها في قومها عزة وكبرياء. وقد اتفق الشرّاح الأجلاء على أنها ربما تكون من بنات الملوك. وليس من صفات الشرف، أن تكون المرأة خاملة جامدة الحس، تعيش مثل البهائم، مهما بلغت من الغنى والترف.

ثم يقول الشاعر:

قُـريـطـيّـة الأخـوال ألمع قـرطـهـا
فـسـرّ الـثـريّـا أنـهـا أبـداً قـرط

هذه فتاة أصيلة (بنت قبائل) كما تقول؟ أخوالها في قريط أو قريطة، من كلاب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة. وقد بلغ من عظمة هذه الموصوفة أن كوكب الثريا، سرّها أن تشبه بالقرط الذي يلمع في أذن الموصوفة.

فسر البطليّوسي بقوله:

(وشبه الثريّا بها في شكلها وامتناع مكانها من الوصول إليه، وفي قوله (أبداً) إشارة إلى قول ابن المعتز في وصف الثريّا:

في الشرق كأس وفي مغاربها
قرط وفي وسط السماء قدم

فشبهها وقت طلوعها بكأس، ووقت غروبها بقرط، ووقت توسطها في السماء بقدم. فولد أبو العلاء معنى آخر فقال إن الثريّا لما رأت قرط هذه المرأة، سرها ألا تشبّه في جميع أحوالها إلا بالقرط دون غيره مما شبّهت به...)

قال أبو العلاء مواصلاً وصف الفتاة:

إذا مشطتها قينة بعد قينة
تضوّع مسكاً من ذوائبها المُشطُ

ربما لكثافة شعرها، لا تمشطها قينة واحدة، بل تمشطها قينة بعد قينة، وكل مرّة يتضوّع المشط من المسك العالق بشعرها.

هذا، وقد ذكروا أن كلمة (مشط) تكون بفتح الميم وسكون الشين، وكسر الميم، وضم الميم مع سكون الشين، وضم الميم والشين.

قال أبو العلاء:

تـقـلّـد أعـنـاقَ الحواطـب بـالـدّجـى
فـريـداً فـمـا في عُـنـق مـا هـنـةٌ لَـطٌ

الماهنة هي الخادمة، واللطّ، يعني الحليّ المزيّفة التي تشبه الحليّ الحقيقية. يقول الشاعر أن هذه السيدة الفاضلة من شدة كرمها وعنايتها بالماهنات اللائي يخدمنها، تلبس حتى اللائي يجمعن الحطب بالليل، حلياً حقيقية مصنوعة من الذهب. وبالليل لا يراهن أحد، فالأمر ليس للتظاهر !

هذا وكأنما الخوارزمي فجأة استفزه الطرب لجمال الوصف فقال:

(هذه الحبيبة موسرة كثيرة النعم، شريفة رفيقة الهمم، تقلد إماءها عقود الفرائد، ولا ترضى لهن بالدون من القلائد).

ويـرفـع إعـصـار مـن الـطـيّـب لا يرى
عـلـيـه انـتـصـار كـلـمـا سـحـب المرط

أجـارتـنـا إن صـاب دارة قـومـنـا
ربـيـع فـأضـحـى مـن مـنـازلـنـا الـسـنـط

إذا حـمـلـتـك الـعـيـس أودى بـأيـدهـا
جـلالـك حـتـى مـا تـكـاد بـه تـخـطـو

كلما رفعت مرطها ثار إعصار من العطر لا يقاوم. وقوله (إن صاب دارة قومنا ربيع) أراد أن الربيع اصاب بلاد الشاعر

فأخصبت فانتجع إليها قوم المحبوبة، فأصبحوا جيرة. والسنط والسلط، بالنون واللام بلدة موجودة إلى اليوم في الأردن.

وحين نصل إلى هذا الحد من الوصف، يتأكد لدينا أن الشاعر حين قال في وصف المحبوبة (أودى بأيدها جلالك) فإنه لم يقصد بدانة المرأة وضخامة جسمها وإنما قصد جمالها وجلالها.

ولا يخفى أن الجمال والجلال لهما وزنٌ ووطأةٌ تحسّ بهما الإبل كما يحس البشر!

وقد صدق الخوارزمي حين لمع المعنى في خاطره فجأة فقال:

(هذه الحبيبة موسرة كثيرة النعم، شريفة رفيقة الهمم، تقلد إماءها الفرائد ولا ترضى لهن بالدّون بالقلائد).

□ □ □

في تذكّر نجيب محفوظ

رحم الله نجيب محفوظ.. عاش أربعة وتسعين عاماً، وكتب أكثر من خمسين رواية ومجموعة قصصية. أمهله القدر حتى أكمل مشروع حياته وبلغ الذروة في عطائه، ووضع لنفسه ولأمته مجداً شامخاً باذخاً.

كان أكثر ما يعجبني فيه النظام الصارم الذي ألزم نفسه به. يصحو في موعد محدد، وينام في موعد محدد. يؤدي عمله الوظيفي ــ وكان دائماً يعمل في وظيفة رسمية ــ ويجلس للكتابة كل مساء في وقت محدد. يقابل اصدقاءه ومديريه، ويتسكع في حارات السيدة زينب والحسين التي عرفها وارتبط بها. نذر نفسه كلياً للكتابة، طوال أيام الأسبوع إلا يوماً واحداً، كما نعلم من اصدقائه المقرّبين أمثال الأستاذ رجاء النقاش، والأستاذ جمال الغيطاني. كان الأستاذ نجيب يفرغ نفسه للكتابة عدداً محدداً من الساعات، إي

إنسان جرب صناعة الكتابة، يعرف كم هو مؤلم وممض هذا النضال اليومي مع عالم التصورات والأفكار.

لا يوجد في الأدب العالمي كله، فيما أعرف، كاتب نذر نفسه للفن وجعل حياته كلها وقفاً عليه، إلا كاتب واحد، هو الروائي الفرنسي (بلزاك) الذي كان يوصف بأنه (ماكينة كتابة). لذلك لم يكن عجيباً أن الناقد العربي النابغة الراحل إدوارد سعيد، شبه نجيب محفوظ ببلزاك، وأضاف إليه فلوبير وتشارلز دكنز.

بلزاك ودكنز احترقا مبكراً في محراب الفن وماتا في أوائل الخمسينات من العمر. كانت حياة كل واحد منهما فوضى. بلزاك لم يتزوج ولم ينجب. وشارلز دكنز عاش حياة عاطفية ممزقة. كل واحد منهما دفع ثمناً باهظاً للإنتاج العظيم الذي نكره.

وفي الأدب العربي المعاصر، يخطر على بالي ثلاثة كتاب، كان كل واحد منهم عظيم الموهبة لكنه لم ينتج بالقدر الذي بشرت به موهبته.

الكاتب الأول هو الراحل/ محمود المسعدي التونسي. كان في تقدير أغلب العارفين ذا موهبة عظيمة، لكنه لم يشأ أن يدفع الثمن الذي يقتضيه الفن، ودخل في معترك السياسة والحياة العامة في تونس، وتوفي عن أكثر من تسعين عاماً، ولم يترك سوى أربعة أو خمسة أعمال.

الثاني هو الكاتب المصري الراحل/ يحيى حقي. كان نادر الموهبة. لكنه اختار ألا يلتزم بالفن التزاماً كاملاً، ويستجيب لندائه استجابة

قاطعة. كاتب يكتب حين يحلو له. كتب أشياء قليلة نسبياً لكنها عظيمة الجمال، وعاش حياة خصبة متنوعة النموذج.

الثالث هو الراحل/ يوسف أدريس. كان بإجماع الناس، صاحب موهبة عظيمة. لكنه لم يحسن استغلالها وبدد جزءاً كبيراً منها في حياة لم تخل من الفوضى والتهور. ورغم ذلك ترك وراءه إنتاجاً وإن كان قليلاً نسبياً، فهو إنتاج فيه سمات العبقرية.

إنني التقيت بالراحل/ نجيب محفوظ مرة واحدة، وكان ذلك في القاهرة أوائل الستينات. التقيت به في ندوة (الحرافش) الشهيرة. كانوا يجتمعون مساء كل خميس، كما أذكر، في دار حسن كامل ــ إذا لم تخنني الذاكرة ــ كان كاتباً موهوباً. ولكنه ترك الكتابة بعد عملين أو ثلاثة وتفرغ لمهنة المحاماة.

ذهبت مع (منسي بسطاوروس)، وخطر لي فيما بعد أن (منسي) كعادته ربما قد ذهب إلى ندوتهم متطفلاً، واقتحمها عليهم اقتحاماً. كان صديقه من الموجودين الراحل/ صلاح جاهين، وكان أكثرهم تلطفاً معنا وحفاوة بنا. وكانوا كلهم في الواقع لطيفين كرماء، لكنني أحسست أنهم لم يكونوا على سجيتهم تماماً.

كان ذلك الوقت في مصر، في الستينيات، زمن توجس وحذر وارتياب، وكنت أنا أعمل يومئذ في هيئة الاذاعة البريطانية، ولم أكن معروفاً بأنني كاتب إلا لقلة من الناس في مصر.

وكان (منسي) قد عاد إلى القاهرة من لندن منذ وقت قصير ووجد لنفسه عملاً في الجامعة الأمريكية.

كان يتعمد الحديث بلغة إنجليزية متقعرة، ويسعده جداً أن يثير الشكوك حول نفسه ولا يبالي حتى إذا قيل أنه جاسوس.

كانت مجموعة صغيرة أذكر منهم غير صاحب الدار والأستاذ نجيب محفوظ والأستاذ صلاح جاهين، أذكر الممثل الشهير أحمد مظهر. كان يوجد آخران ضاع مني اسماهما.

أجلسوني كرماً منهم، بجوار الأستاذ نجيب، إذ أنني كما قلت لم أكن كاتباً معروفاً. وكان (منسي) واقفاً طول الوقت، يتحدث بلهجة خطابية، بالعربية أحياناً، وبالإنجليزية في أغلب الأحيان، كان يثير شغباً عظيماً ويريد، كما هو واضح أن يترك أثراً قوياً. وكان الأستاذ نجيب قليل الكلام.

الشخص في تلك المجموعة الصغيرة، الذي كان يعرف (منسي) أكثر ويحبه، وعارف للعبة التي يلعبها (منسي) كان صلاح جاهين، أنا أيضاً كنت أعرف صلاح جاهين، بقدر أقل من (منسي) وقد عرفته اكثر فيما بعد واحببته.

أردت أن أستفز الأستاذ نجيب للكلام، وكنت قد قرأت لتوي روايته (اللص والكلاب). قلت له إنني أعجب بها، ولم يبد عليه أنه اهتم كثيراً لقولي، كما ظننت. قلت له أنها ذكرتني بمسرحية (هاملت) لشكسبير. أجابني فوراً بشيء من الحزم، وكأنه استيقظ من غيبوبة: (إزاي بقى؟ دي كلها أكشن. هاملت ما فيهاش أكشن خالص).

وقبل أن أقول شيئاً، سارع (منسي) فالتقط خيط الكلام، وأعطاهم

محاضرة عن أن (هاملت) مليئة بالأكشن. وكان يتحدث باللغة الإنجليزية في الغالب، ويضرب أمثلة من مسرحية شكسبير، بعضها حق وبعضها باطل.

ولما أطنب وأطال والأستاذ الكبير نجيب محفوظ صامت لا يقول شيئاً، قال له صلاح جاهين بلطفه المعروف:

(إحنا مش قد الإنجليزي دا كله يا دكتور!).

وهكذا أضاع عليّ منسي متعة الاستماع إلى الأستاذ الكبير في تلك الليلة التي لم تتكرر لسوء الحظ، والأستاذ نجيب كما يقول كل من يعرفونه محدث بارع وصاحب طرافة ونكتة. إنني، بما في طبعي من الحياء، غلب علي الحرج، إن (منسي) فرض نفسه وفرضني على أولئك القوم الكرام في خلوتهم، مثل الضيوف المتطفلين الذين يصفهم الجاحظ في كتاب (البخلاء).

أما (منسي) فلم يكن يبالي. كان يحس أن له دعوة مفتوحة على مائدة الحياة، أينما تكون وعند من تكون.

□ □ □

الإنسان المعتدي أفسد الحياة
ليس على نفسه فقط

عاش الإنسان زمناً، ينتهب من خيرات الأرض بلا حساب، كأنها كنوز أبدية لن تنفد. أعطاه الله سبحانه وتعالى كل ما يحتاج إليه. أعطاه الأرض والسماء والبحار والغابات والأسماك والحيوانات والطيور والنباتات. جعله خليفة في الأرض، يأخذ منها بمقدار. يعيش في توازن ووفاق مع عناصر الحياة على الأرض. وكذلك مضت الحياة آماداً طويلة، ثم فجأة ارتبك التوازن واختل النظام. وكان الإنسان هو المعتدي. ووصل عدوانه الذروة بعد الحرب العالمية الثانية. غرّته الاكتشافات العلمية المتلاحقة التي أحرزها. وبدلاً من أن يستغلها في تحسين حياته، أخذ ينتهك حرمة الأشياء واحداً تلو الآخر. ملأ الجو بالسموم والدخان، وصب في البحار النفايات الملوثة من المصانع. دمر مساحات واسعة من الغابات،

وهي الغابات التي تمده بالأوكسجين الذي يتنفسه، لوث الأشعاعات الذرية الفتاكة، ولوث الأرض بأسلحة حروبه البشعة. أفسد الحياة التي تمده بالأوكسيجين الذي يتنفسه، لوث الإشعاعات الذرية الفتاكة، ولوث الأرض بأسلحة حروبه البشعة. أفسد الحياة ليس فقط على نفسه، ولكن على الأسماك في البحار، والطيور في الجو، والنباتات وكل شيء حي في المروج والغابات. وأكثر ما حدث هذا الانتهاك، كان من الإنسان الأكثر حظاً، من الدول الأكثر تقدماً وثراء. بدأت الطبيعة تستجيب لهذا العدوان. بدأت تحدث ظواهر جديدة. ارتفعت درجة الحرارة، وبدأت الثلوج القطبية التي ظلت جامدة منذ بدء الخليقة، بدأت تذوب، أخذت تحدث فيضانات لم تكن تحدث من قبل، وأحياناً فترات جفاف طويلة، بدأت بعض أنواع الحيوانات والنباتات تنقرض وتظهر أوبئة وأمراض غامضة. انتبه بعض الناس لهذه التحولات الخطيرة. بعض الدول بدأت تهتم بأمور البيئة، وانعكس هذا الاهتمام على منظمة الأمم المتحدة، نشأت أحزاب تسمى (أحزاب الخضر) انصب اهتمامها على شؤون البيئة. إنما هذا كله لم يرق إلى مستوى خطورة الموقف. في أثناء ذلك ظل العلماء والمهتمون من قادة الرأي، يرفعون أصواتهم منبهين الشعوب إلى خطورة الأمر. وقال بعض العلماء، إن البشرية إذا لم تفعل شيئاً حاسماً لتغيير سلوكها والتعامل باحترام أكثر مع موارد الطبيعة، فإن حياة الإنسان على الأرض لن تستمر أكثر من خمسين عاماً.

هذا ومن دلائل الاستجابة لهذه الإنذارات، أن الحكومة البريطانية قد أصدرت منذ أيام تقريراً شاملاً أعده اقتصادي مرموق كان إلى وقت قريب كبير الاقتصاديين في البنك الدولي هو (سير نكولاس ستيرن).

يقول التقرير إن على العالم أن يبدأ فوراً بجد، لتلافي أخطار تغير المناخ، وإلا فإنه سوف يواجه نتائج اقتصادية مدمرة، وإن الكربون الذي ينفث في الهواء (من السيارات وغيرها) رفع درجة الحرارة بمقدار درجة سِلسِيس، وإذا لم يعمل شيء لإيقاف ذلك، فإنه يوجد احتمال بمقدار ٧٥ في المئة أن معدلات درجة الحرارة في العالم سوف ترتفع بمقدار درجتين إلى ثلاث درجات خلال السنة القادمة، ويوجد احتمال بمقدار ٥٠ في المئة أن درجة الحرارة سوف ترتفع بمقدار خمس درجات سِلسِيَس.

ويضيف التقرير:

(الثلوج القطبية الذائبة سوف تزيد من خطر الفيضانات، وأن إنتاج المحاصيل الزراعية، خاصة في إفريقيا سوف يهبط، وأن ارتفاع مستوى مياه البحر (التي سوف تغمر مساحات واسعة من الأراضي) سوف يجعل مائتي مليون إنسان، مشرّدين بلا مأوى بشكل مستديم.

ويضيف التقرير قائلاً:

(التغير الحاد للطقس، قد يخفض معدل الانتاج الاقتصادي بمقدار ١ في المئة، وان ارتفاع درجة الحرارة بمعدل ثلاثة درجات، قد يجعل الإنتاج الاقتصادي في العالم يهبط بمقدار ٣ في المئة.

(وفي أسوأ الحالات المنتظرة، سوف يهبط استهلاك الفرد بمقدار ٢٠٪).

هذا ويقدم التقرير هذه الخيارات للتغيير:

١ ــ تخفيض الطلب على السلع التي تسبب تلوثاً ملحوظاً.

٢ ــ جعل إمدادات الطاقة في العالم أكثر فعالية، وتشجيع استعمال مصادر الطاقة النظيفة، على أن يخفض من استعمال البترول ومصادر الوقود المعدنية بمقدار ٦٠٪ بنهاية عام ٢٠٥٠.

٣ ــ التعاون مع البنك الدولي وغيره من المؤسسات المالية، على إنشاء رصيد من عشرين مليون دولار لمساعدة الدول الفقيرة لمعالجة نتائج تحولات الطقس.

٤ ــ التعاون مع البرازيل و(بابوا نيوقني) وكوستاريكا، لتنمية الغابات ومنع التصحر.

هذا، ورغم أن التقرير يخص أساساً الحكومة البريطانية، لكنه يؤكد على ضرورة مواجهة تغير المناخ مواجهة جماعية من كل الدول. ولا يخفى ان الولايات المتحدة تقع عليها أكبر المسؤولية في تلوث البيئة، ورغم ذلك رفضت أن توقع على معاهدة كيوتو التي وقعت عليها سائر الدول.

يقول سير نكولاس ستيرن معد التقرير:

(إننا لا نزال نملك الوقت والمعرفة لعمل شيء، ولكن بشرط أن نعمل مجتمعين ونعمل بجد وعزيمة، ونعمل بشكل عاجل).

□□□

السودان... رحلة في كتاب

كان سير هارولد ماكمايكل، مؤلف كتاب (السودان) الذي صدر عام ١٩٤٥، والسودان يوشك أن ينال استقلاله، أقرب ما يكون إلى المؤرخ المحترف. وقد ترجمه الأستاذ محمود صالح عثمان صالح.

ولد في تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٨٨٢ وتخرج من جامعة (كيمبردج)، الجامعة الأخرى الموازية لجامعة (أكسفورد) ـ تحصل على درجة الشرف الأولى في التاريخ، كما صار زميل شرف في جامعة (كيمبردج).

في عام ١٩٠٥، وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر، التحق بالعمل في إدارة حكومة السودان، أي بعد سبع سنوات فقط من احتلال بريطانيا السودان. وهذا يعني أنه كان أحد (الاستعماريين

المؤسسين) الذين صاغوا الإدارة الجديدة في البلاد، حسب اجتهاداتهم وتصوراتهم. وكما قلت، فإن هذا يجعل الكتاب أهم من كونه محض تاريخ، بل يجعله (وثيقة مهمة لمسيرة النظام الاستعماري في السودان، خاصة في السنوات الأولى من وجوده).

عمل ماكمايكل في إقليم كردفان حتى عام ١٩١٢. وهذا الإقليم الشاسع الذي يمتد من الخرطوم والمديرية الشمالية في الشرق حتى حدود دارفور في الغرب، والمديريات الجنوبية ربما يكون مقراً لأكبر تجمع من العرب البدو. إنه موطن قبيلة الكبابيش العتيدة، رعاة الإبل، وهم من عرب جهينة، ظل حصيناً مستعصياً على الفاتحين، فلم يخضع لسلطان العثمانيين ولا المصريين ولا سلطان الثورة المهدية.

استهوى هذا الإقليم أولئك الشباب من المستعمرين، خريجي جامعتي (أكسفورد) و(كيمبردج) أول قدومهم إلى السودان، وقد استهوى من قبل (سير دقلاس نيوبولد) الذي صار سكرتيراً إدارياً لحكومة السودان، وقد صار تقليداً متبعاً لدى الإدارة الانجليزية في السودان، أن يصبح (حاكم) ولاية كردفان، سكرتيراً إدارياً للحكومة، وهو المنصب الذي يلي منصب الحاكم العام في الأهمية.

كأنهم كانوا يجربون نظرياتهم في الحكم ومهاراتهم، في التعامل مع تلك القبائل التي تشربت روح الاعتداد بالنفس ورفض الخضوع. وفي موضع ما من هذا الكتاب يقول ماكمايكل: (وحقيقة فإن معظم تاريخ الإمبراطورية البريطانية، يدعم النظرية القائلة إن هدفي بناء الإمبراطورية، هما الاستحواذ على القواعد

الاستراتيجية وفتح طرق التجارة)، وأيضاً (التوق للبلاد القاحلة لتعميرها ولتقويم الاعوجاج واستبدال النظام بالفوضى. تلك العوامل هي التي ساعدتنا على التفوق على القوى الأخرى).

هذا كله اختصار لما سماه الإنجليز والفرنسيون (المهمة الحضارية) في محاولتهم إيجاد مبرر للاستعمار. وقول ماكمايكل (التوق للبلاد القاحلة لتعميرها) إنما هو صدى لقول (تي. أي. لورنس) في كتابه الشهير (أعمدة الحكمة السبعة) أنه (كره المطر والبلل واشتاق للجفاف والقحط).

هذا الإعجاب بالصحراء وحياة البداوة لدى ماكمايكل وكثير من الإنجليز الذين عاشوا في العالم العربي، ربما يفسر قوله: (ولكن المصريين، ومع أنهم يدركون الهدف الأول، إلا أنهم لا يفهمون بتاتاً أن هناك من يعمل لمصلحة الغير وإنما فقط لمصلحة ذاتية، ولم يدركوا أن الأحوال قد تغيرت في غضون الثلاثين سنة الماضية، وأن الحكم الامبريالي في الماضي مهما كانت حسناته ومبرراته ــ وهي ليست قليلة ــ قد ولى من العالم الغربي، وحل محله نظام حديث يدين كل أشكال العدوان ويؤمن بحق الشعوب في حكم نفسها بنفسها متى أظهرت الكفاءة لعمل ذلك...).

هذا كلام، كله قابل للجدل، وسوف يأتي مكانه فيما بعد إن شاء الله. ولكنني أعود الآن إلى سيرة حياة (سير هارولد ماكمايكل).

بعد مديرية كردفان، عمل في مديرية النيل الأزرق حتى عام ١٩١٣ ثم انتقل إلى العمل في الخرطوم. وبعد تجارب عدة في مناصب إدارية متنوعة، وصل عام ١٩١٩ إلى منصب مساعد

للسكرتير الإداري، وفي عام ١٩٢٦ رقي إلى منصب السكرتير الإداري. وبعد أن تقاعد من العمل في حكومة السودان، صار عام ١٩٣٤ حاكماً وقائداً عاماً لتنجانيقا، وفي عام ١٩٣٤ وحتى عام ١٩٤٤ صار مندوباً سامياً وقائداً عاماً في فلسطين.

طوال فترة عمله، لم يهمل (سير هارولد ماكمايكل) كتابة التاريخ فأصدر كتاب (السودان الإنجليزي المصري) عام ١٩٣٤، وكتاب (وسوم الجمال لدى كبرى قبائل كردفان)، وفي عام ١٩٢٢ أصدر كتابه عن (تاريخ العرب في السودان).

كذلك أسس ماكمايكل في عام ١٩١٨ مجلة (السودان في رسائل ومدونات) التي استمرت مدة طويلة إلى ما بعد الاستقلال، وصارت من المراجع المهمة في تاريخ السودان وقبائله وجغرافيته.

بقي أن أذكر أن سير هارولد ماكمايكل ينتمي إلى أسرة (استعمارية) عريقة، فقد كان ابن أخت (لورد كيرزن) الذي كان نائباً للملك في الهند. وكان وزيراً في حكومة لويد جورج التي أصدرت وعد بلفور عام ١٩١٧، وكان أحد وزيرين اعترضا على ذلك الوعد.

□ □ □

بريطانيا لم تستعمر السودان صراحة

أقاموا في السودان بالفعل (نظاماً هجيناً) للحكم، ليس له نظير في القانون الدولي. يقول (سير هارولد ماكمايكل) في كتابه (السودان)، إن بريطانيا فعلت ذلك مراعاة لمقتضيات العدل والسياسة.

لعل مقتضيات السياسة كانت هي الغالبة على مقتضيات العدل. وكانت بريطانيا هي الدولة الكبرى في ذلك العهد، أواخر القرن التاسع عشر. ولو أنها فرضت نفوذها الكامل على السودان صراحة، لما استطاعت أي قوة أخرى أن تمنعها من ذلك.

الدول التي كانت ذات علاقة بما يجري في السودان، كانت مصر، وتركيا العثمانية.

ومن الدول الأوروبية كانت فرنسا تتلمظ لتنال قضمة من الكعكة في السودان، إذا صح القول!

أما مصر فقد كانت في هذه الفترة، مغلوبة على أمرها، تتبع اسمياً لنفوذ الدولة العثمانية المريضة المتآكلة، وتخضع في الواقع لنفوذ الدولة الاستعمارية الكبرى، بريطانيا.

لم يكن الباب العالي في اسطنبول، ولا الخديوي في القاهرة هو المتصرف في شؤون مصر، بل كان (لورد كرومر)، المندوب السامي لبريطانيا، وأحد دعاة المستعمرين، وصناع الامبراطورية. ويمكن القول أن لورد كرومر، كان هو العامل الفاعل في السياسة البريطانية من اسطنبول إلى وسط إفريقيا.

وكان من غير المستغرب أن يقول (سير هارولد ماكمايكل) في هذا الكتاب: (لقد قبلت بريطانيا المسؤولية لرعاية مصر وإنهاضها وأصبحت السلطة النيابية لمدة سبعة عشرة عاماً. لقد أنقذت بريطانيا مصر من الخراب المالي والسياسي ومنحتها حكومة نظامية وجيشاً مقتدراً وأمناً وعدلاً وازدهاراً. وقد صانتها من عواقب تهورها وسوء أحوالها ومن غزو جيوش المهدي.

وبثقلها في المجالس الأوروبية، فإن بريطانيا تمكنت من دحض ادعاءات الآخرين الذين دافعوا بأن السودان قد أصبح بعد إخراج المصريين منه، إقليماً للاستيلاء عليه من قبل أول قادم. وأخيراً بعون رجال مصر وأموالها، ولكن بقيادة بريطانيا والقوة الدافعة التي كانت متاحة لها، سحقت قوة الخليفة ووضعت نفسها في وضع يمكنها من إنهاض السودان أيضاً!).

أما فرنسا، الدولة الاستعمارية التالية في المرتبة لبريطانيا، فقد غامرت بإرسال حملة عسكرية من الشرق بقيادة الرائد مارشان، عبر نهري البارد والسوباط. وكان هدف فرنسا أكبر من احتلال (فشودة) البقعة التي عرفت بها هذه الحملة. كان هدف فرنسا كما يقول (سير هارولد ماكمايكل) هو إخراج بريطانيا من السودان، ومن مصر في نهاية الأمر.

لكن القوتين الاستعماريتين توصلتا إلى اتفاق، بعد أن كادتا تدخلان في حرب.

يبدو لي من هذا الكتاب الشيق، أن بريطانيا لم تستعمر السودان صراحة وتنفرد بحكمه قولاً وفعلاً لعدة أسباب:

أولاً لم تجد في السودان إغراء كافياً للاستيطان فيه كما حدث في كينيا ووسط إفريقيا. كان طقسه كما وصف لورد كرومر (رديئاً جداً). لقد اكتشفوا بعد ذلك أماكن ومناخات أكثر إغراء.

ثانياً، كان من الواضح أن بريطانيا أرادت أن تستعمر السودان بأقل ثمن.

كان ضباط الجيش في الغالب بريطانيين، لكن غالبية الجنود كانوا مصريين وسودانيين. وحتى نفقات الحملة القليلة نسبياً، حملوها مصر، كما حملوا مصر دفع العجز في موازنة السودان، في السنوات الأولى للحكم الثاني.

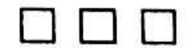
ثالثاً، وجد البريطانيون في مقاتلي الثورة المهدية، مقاتلين أشداء

ذوي شجاعة وروح معنوية عالية جداً. رأوا كيف أن (الدراويش) كما كانوا يصفونهم أبادوا حملة (هكس باشا) بأكملها، وكيف أنهم قاتلوا بشراسة في معركة (أم درمان) رغم التفوق التكنولوجي للقوة الغازية.

خافوا أن يدخلوا في مغامرة لا يستطيعون أن يتنبأوا بنتائجها، تورطهم أكثر فأكثر في (وحل) السودان، لذلك دخلوا السودان يضعون على رؤوسهم الطرابيش، وكأن ذلك سوف يعصمهم ولو إلى حين من غضب الشعب.

ويضيف (سير هارولد ماكمايكل) سبباً آخر، وهو أن بريطانيا لم تكن راغبة في إثارة مخاوف فرنسا، أنها باستيلائها المطلق على السودان، بالإضافة إلى سيطرتها (المقنعة) على مصر، تكون قد سيطرت على حوض نهر النيل من المنبع الى المصب. ولم يكن (سولزبري) رئيس وزراء بريطانيا، راغباً في الدخول في حرب ضد فرنسا، خاصة بعد أن عقدت فرنسا حلفاً مع روسيا.

الغموض والثنائية في الوضع القانوني والسياسي للسودان، تبلور في وظيفة الحكم العام، فبناء على الاتفاقية البريطانية المصرية لعام ١٨٩٩، التي صارت بمثابة دستور للسودان، تنص المادة الثالثة: (تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان، الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية).



ماذا قال أول حاكم عام للسودان؟!

لا شك أن السودان، حين فتحه الإنجليز، عام ١٨٩٨، كان في حالة بالغة التعاسة.

كان السودان من الناحية الاقتصادية والسياسية والإنسانية، على درجة من الانهيار يصعب تصورها. بعد قرابة عشرين عاماً من حكم (المهدويين) وخاصة الخليفة عبدالله التعايشي الذي خلف الإمام محمد أحمد المهدي بعد وفاته، كان عدد سكان السودان قد انخفض من ثمانية ملايين وخمسمائة ألف إلى مليوني إنسان. ويقول (ماكمايكل): (لقد أزيلت قرى بأكملها من الوجود، وتوقفت الزراعة، ونفقت قطعان الماشية، وقطعت أشجار النخيل، واستشرت الإغارة على الدقيق، ولم يكن هناك أمن أو ضمان للحياة أو الأموال. كان التمرد يقابل بانتقام وحشي، مما تمخض عنه الضغائن والكراهية والشكوك في كل منطقة. لم تبق هناك أي

سلطة قبلية إلا وسط القبائل الرحّل في مناطق لم تصل إليها جيوش الخليفة مثل الكبابيش...).

عندما أخذت الحكومة الجديدة تبسط سلطتها، وجدت أن حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي عمت البلاد قبل الاحتلال، كانت حافزاً كبيراً للأهالي أن يأملوا في أوضاع أحسن. ويمضي (سير هارولد ماكمايكل) فيقول: (أما هدف المحتلين الواضح من نشر العدل وإشاعة الرحمة والتعمير بدل الهدم، فقد قوبل بارتياح كبير من الجميع بغض النظر عن ولاءاتهم السابقة. واتفق على أن إقامة حكم لا مركزي شامل سوف يكون ضرورياً وحكيماً في كل المستويات. ومع أن اللورد كرومر قام بعدة زيارات الى الخرطوم وباشر إشرافاً حكيماً ومفيداً على مسار تقدم البلاد، إلا أنه لم يكن راغباً في إدارة السودان من القاهرة، كما لم يكن لدى الحاكم العام وموظفيه رغبة أو إمكانية لإدارة المديريات التي قسمت إليها البلاد من الخرطوم...).

هذا كلام ليس فيه أي مبالغة، فكون غالبية شعب السودان، بعد سنوات من الغليان والحروب والانتفاضات وحملات القمع البالغة القسوة، والضرائب الفادحة، قد وجدوا نظاماً بديلاً للحكم، لا غرو أنه نظام أجنبي مفروض من الخارج، لكنه كان نظاماً (عقلانياً) يتوخى العدل.

لذلك لم يرفضوه رفضاً صريحاً، ثم قبلوا به تدريجاً.

إن القبائل في مراكز (الوعي) والاستقرار في الشمال والوسط والشرق والغرب، تعرضت إلى محنة حقيقية من جراء حكم يستند

إلى أقل مناطق السودان تقدماً، فنشأ نظام فوضوي يرتدي زياً من التطرف الديني، ولا شك أن تلك القبائل مثل الشايقية والجعليين في الشمال، والكبابيش والشكرية وغيرها، بذلوا جهوداً متعددة للخلاص من حكم الخليفة عبدالله التعايشي. ولا يستبعد أنهم اتصلوا بقوى أجنبية.

هذا، ولم يكن صعباً على الحكام الجدد، بأفكارهم الحديثة المجربة في الحكم والادارة، واحترامهم الموروث للقوانين، وتأثرهم بالفلسفات الليبرالية من جامعتي (أكسفورد) (وكيمبردج)، والفرص الواسعة التي أتاحها لهم التحكم في مساحات شاسعة متنوعة التخوم والمناخات، أن يقيموا في بلاد السودان نظاماً مستقراً للحكم هو على النقيض تماماً من نموذج الحكم الذي أقامه الخليفة (عبدالله التعايشي).

أعلنو ان النظام الجديد يقوم (على العدل والرحمة)، وهي عبارة تتردد في البيانات الرسمية مثل (موتيف) في سمفونية موسيقية من كتشنر حتى نيوبولد.

في التقرير السنوي لعام ١٨٩٩، يقول (لورد كتشنر) أول حاكم عام للسودان، موجهاً حديثه للمديرين والإداريين ومفتشي المراكز: (عليكم من أجل إقامة العدل في المديريات، أن تكونوا حريصين جداً على أن تروا التمسك بالصيغ القانونية يجري تماماً كما وضعت، وذلك كي تلقى المحاكم المعينة احتراماً خاصاً. عليكم أن تحاولوا بالتحري الدقيق الذي تقوم به المحاكم في القضايا المعروضة عليها الايحاء الى الشعب بالثقة المطلقة بأنه قد أعطي عدالة حقيقية.

انه لمن المهم جداً ألا تفعل الحكومة شيئاً يمكن أن يفسر بأنه دليل ضعف، وكل تمرد يجب أن يقمع بسرعة وشدة. وفي الوقت نفسه يجب أن تكون الروح الأبوية في عقاب الجرائم رائدكم في علاقتكم بالشعب، وأن تظهروا الرأفة في معالجة الجريمة الأولى وخصوصاً إذا كانت نتيجة الجهل أو حين يعترف بها علناً. وفي الحالة الثانية يجب أن يكون العفو أكثر من نصف العقوبة تشجيعاً لقول الحقيقة).

□ □ □

السودان... حكم استعماري من نوع جديد

لم يمض وقت طويل حتى بدأ يظهر في بلاد السودان، حكم استعماري من نوع جديد.

يقول (سير هارولد ماكمايكل) في كتابه (السودان) الذي ترجمه ترجمة ممتازة الأستاذ محمود صالح عثمان صالح، وأصدره مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي: (كان المتبع في سياسة الحكم البريطاني في السنوات الأولى، هو ترك مجتمعات القبائل والقرى تدير شؤونها بنفسها. وذلك لأسباب ثلاثة. في المقام الأول لم يكن هناك خيار عملي آخر نسبة لقلة الموظفين.

وثانياً، فقد كان نظام الحكم الأبوي متعارفاً عليه في المجتمعات القبلية بوجه الخصوص وفي مجتمعات أخرى.

وثالثاً، كان زعماء القبائل في المناطق البعيدة رجالاً أقوياء وذوي نفوذ ولن يرضوا بأي محاولة لسلبهم سلطانهم، وسيجدون المبرر لمعارضة مثل تلك المحاولات في الوقت الذي كانت فيه الحكومة ترغب في تعاونهم وليس في عدائهم...

ويمضي سير (هارولد ماكمايكل) فيذكر أن الحكومة في بداية عهدها في ذلك الوقت، لم تكن قد حددت هدفها بالنسبة للنظام السياسي المستقبلي، وإنما انشغلت فقط باستتباب الأمن وترسيخ مبادئ العدالة، ثم يضيف: (كان هناك ميل لدى بعض الدوائر (البريطانية) من ذوي العقول الديوانية ومن موظفي مناطق النيل الشمالية حيث كانت سلطة القبائل ضعيفة، للتطلع إلى اليوم الذي يربط فيه السودان بشبكة من المكاتب تعج بأعداد غفيرة من الموظفين والاداريين والمحاكم القضائية والروتين وكل ما يتبع ذلك من مقتضيات نظم الحكم الحديثة..).

هذا النظام (البيروقراطي) لم يطبق أبداً في السودان. أنشأ الإنجليز جهازاً إدارياً صغيراً جداً بالقياس الى المساحة الشاسعة للقطر. وكان عدد الموظفين البريطانيين أقل من خمسمائة موظف؟ كانت لكل واحد منهم سلطات واسعة، وكان قطب الرحى هو الحاكم العام. وتحت هؤلاء يأتي النظار وشيوخ القبائل وهي المؤسسة التي تطورت منذ مملكة (سنار) وكانت هي الحكومة الفعلية في مختلف العهود وقد أدرك الإنجليز من أول وهلة، أنها مؤسسة للحكم قليلة التكلفة، فتركوها على حالها. يقول (ماكمايكل): (تم تطوير وتعديل الدستور، ولكن السلطة العسكرية والمدنية التي منحت للحاكم العام وحده بموجب اتفاقية الحكم الثنائي لم يطرأ عليها أي تغيير، الأمر الذي ضمن نوعاً من الاستقرار والاستمرارية.

وحتى عام ١٩١٠، لم يكن هناك مجلس تشريعي أو استشاري أو تنفيذي رسمي. كان السردار، الحاكم العام، حاكماً مطلقاً. وكانت الحكومة تدار على نمط عسكري، وكان السكرتير الاداري والسكرتير المالي والسكرتير القضائي ومديرو المصالح ومديرو المديريات، موظفيه وقادته الميدانيين. ثم بعدها اتخذ قرار (بتقنين الممارسة غير الرسمية، بخلق مجلس للحاكم العام لمساعدته في تصريف مهمته التنفيذية والتشريعية..).

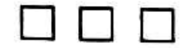
ومع مرور السنين نمت أواصر وارتباطات بين الموظفين البريطانيين أنفسهم في السودان، أقرب ما تكون بالأواصر القبلية. وكان زعيم هذه القبيلة العجيبة هو الحاكم العام. وقد أحسن الحكام البريطانيون فهم الطقوس القبلية في السودان وأعرافها وأحسنوا استغلالها. وجاء وقت أصبح فيه التعامل بين الحاكم العام وزعماء القبائل، كأنه تعامل بين أنداد.

يقول (ماكمايكل): (إن التعامل الأهم في تحقيق تلك النتيجة كان الولاء التام للحاكم العام من كافة الموظفين البريطانيين. لم يكن تعيين الحكام العامين تعييناً سياسياً مؤقتاً، إنما كانت خدمتهم في السودان تغطي تقريباً كل فترة حياتهم دون احتمال أو رغبة في التحول للعمل في مكان آخر.

لم تكن هناك وزارة أو مصلحة في لندن تتحكم في مصائرهم أو في أعمالهم نظرياً أو فعلياً. كما لم تكن هناك محاسبة برلمانية لهم. وفيما عدا أعلى المجالات لم تكن تقدم في البرلمان أسئلة كثيرة عن السودان.

وحتى إذا ما قدمت، فإن وزارة الخارجية كانت هي الجهة المدنية الوحيدة التي تتولى الرد نيابة عنهم. ومما يبعث على الارتياح أنه كان يكتفى بالقول إن الأمر متروك لقرار الحاكم العام..).

ويلخص (ماكمايكل) الوضع كما كان قائماً في هذه الفقرة الواضحة ذات الدلالات البعيدة: (وهكذا نشأت هيئة مؤتلفة من الموظفين الذين يقدمون خدماتهم للدولة طواعية غير مكبلين بأي نوع من الاستبداد، وغير مشغولين سوى بعملهم وهواياتهم وأسرهم ويدينون بالولاء المخلص لرأس الدولة الذي يجسد القيادة الواسعة ــ الحاكم العام).



الرجوع إلى النرويج

واضح أن هذه الدولة الاسكندنافية، التي تصف نفسها بأنها «دولة صغيرة غنية ديموقراطية صناعاتها متطورة في أقصى الشمال الأوروبي»، أنها تسعى الى تنمية علاقاتها مع العالم العربي، ومن بعض مظاهر سعيها، هذه الندوات التي تطوعت لعقدها من تلقاء نفسها للحوار مع العالم العربي.

قال البروفيسور (أويسترن نورنج) أستاذ الادارة والاقتصاد في جامعة أوسلو في محاضرته المهمة في هذه الندوة، أن سياسات النرويج تقوم دائماً على الرغبة في عمل الخير لذاته وأيضاً المنفعة المتبادلة. لذلك فهم يريدون الصداقة ويريدون المنفعة. وفي هذا لعمري كل العدل، ويا ليت كل الدول تفعل ذلك.

ولا يخفى أن التعامل مع هذه الدول التي تبدو صغيرة وخفيفة الوزن وقليلة الجدوى، قد ينطوي على خير كثير.

توجد اليوم علاقات من نوع ما بين النرويج والعالم العربي، وقد حضر هذه الندوة عدد من سفراء الدول العربية المعتمدين لدى دولة النرويج، سفيرة تونس، وسفير المغرب، وسفير السودان وسفير السلطة الفلسطينية. وكان مقرراً أن تحضر سفيرة مصر لولا أن عاقها المرض، وقد أسعدني بصفة خاصة أن سفير السودان، شارلز مايانق داوول، هو من جنوب السودان، وهو ديبلوماسي متمرس عاش ودرس في شمال السودان، ويتحدث اللغة العربية كأنه من أبناء شمال السودان، وأظن هؤلاء كل سفراء الدول العربية الموجودين في أوسلو.

ماذا تستطيع النرويج أن تقدم للبلاد العربية؟ إنني منذ زيارتي الأولى للنرويج، وزيارتي للسويد والدانمارك، لاحظت، وقد يبدو هذا غريباً، وجوه شبه كثيرة بين بلاد اسكندنافيا والبلاد العربية، حتى الصحراء، إن قلت الصحراء، فإن لديهم صحارى لولا أنها من الجليد، وإن قلت البدو، فعندهم بدو، هم الـ(سامي) الرحل الذين يعيشون في تلك الفيافي. وإن قلت الإبل، فلديهم قطعان من الإبل هي الـ (رينديِر).

ودولة النرويج خاصة، لديها خبرات كثيرة يمكن — في ظني — أن تستفيد منها البلاد العربية، لديهم على سبيل المثال لا الحصر، خبرات في مجال الزراعة والصناعات، وفي مجال توليد الطاقة الكهربائية والمياه، وفي مجال بناء السفن وصيد الأسماك. ولديهم بالطبع خبرة واسعة في ميدان صناعات البترول.

وليس من المبالغة القول، إن النرويج هي أكثر دول العالم اهتماماً بقضايا البيئة، وكانت أول دولة أوجدت وزارة للبيئة. وقد اختيرت

رئيسة وزرائها السابقة السيدة (غروهارلم) رئيسة للجنة التي كونتها منظمة الأمم المتحدة لدراسة قضايا البيئة والتنمية، ورفعت اللجنة تقريرها الذي عرف بتقرير (برنتلاند) عام ١٩٨٧، حث التقرير الدول على عمل تنمية تستجيب لمتطلبات الحاضر، من دون تدمير احتمالات التنمية القادمة في المستقبل.

منذ أن أعطت النرويج منظمة الأمم المتحدة أول أمين عام لها هو مستر (ترغفي لي) ظلت وفية للمنظمة. ويعتبر الدعم الذي تقدمه النرويج بالقياس الى دخلها القومي، أعلى نسبة بين المساعدات التي تقدمها دول العالم النامية للدول الأقل نمواً.

كانت أول خطوة للنرويج في مجال المساعدات الدولية أنها في عام ١٩٥٢، أقامت مشروعاً كبيراً لتربية الأسماك في ولاية (كيرالا) في الهند. وفي عام ١٩٦٢ أسست هيئة لدعم التنمية في العالم الثالث تحولت بعد ست سنوات الى مؤسسة (نوراد NORAD). وفي عام ١٩٨٤ أنشأت النرويج وزارة كاملة للتعاون والتنمية ضمت تلك المؤسسة.

كذلك ظلت النرويج منذ قيام الأمم المتحدة تساهم في حل النزاعات الإقليمية في العالم ولا تتردد في المشاركة في قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، كما تتصدى للوساطة في حل الخلافات الدولية.

هذا وقد كانت هذه الندوة التي عقدت في مدينة (أوسلو) في الثالث عشر من شهر مايو الماضي، الندوة الأخيرة في مجموعة ندوات عن (الحوار العربي ـ النرويجي). قامت بذلك اللجنة

الوطنية النرويجية لليونيسكو بالتعاون مع وزارة التربية. افتتح الندوة مندوب عن وزيرة التربية، وكان من المتحدثين فيها هدى كنون سفيرة تونس وعبد الوهاب بلوكي سفير المغرب والدكتور فهد الطياش رئيس تحرير مجلة «المجلة» وكاتب هذا المقال.

تحدثت أيضاً الدكتورة (غنفر ميدل) أستاذة الدراسات العربية في جامعة أوسلو، ولا أعلم إن كان يوجد في أي جامعة عربية على امتداد ما يسمى بالوطن العربي، قسم للدراسات النرويجية أو حتى الدراسات الاسكندنافية مجتمعة. وكما نقول في السودان «نحن في شنو؟ والحسانية في شنو؟».

إنها سيدة فاضلة تعرفت عليها منذ زيارتي الأولى، تحسن اللغة العربية وتترجم منها للغة النرويجية، وواضح في سمتها انها تحب العالم العربي وتعشق الثقافة العربية والحضارة العربية، افتتحت كلمتها في الندوة بقولها:

«أنا لست محايدة، إنني بصراحة منحازة للثقافة العربية والحضارة العربية».

□ □ □

التعاون بين جامعتي بيرقن والخرطوم

في خضم الصراعات والمشاكل والحروب التي تستعر في العالم، يجد الإنسان بعض الظواهر التي تبعث على الأمل والتفاؤل، وتقوي الإحساس بأن الإنسان، بقدر ما في طبيعته من نزوع نحو الخراب والدمار، فهو أيضاً قادر على البناء وعمل الخير.

من هذه الظواهر التي لفتت نظري أخيراً، التعاون الذي نما بين جامعة (بيرقن) في النرويج والجامعات السودانية، وبخاصة جامعة الخرطوم. لقد زرت جامعة بيرقن أخيراً، بصحبة صديقي رجل الأعمال السوداني المثقف محمود صالح عثمان صالح. إنني مهتم ببلاد اسكندينافيا منذ زمن، وقد زرت الدانمارك والسويد، وزرت أوسلو، عاصمة النرويج مرتين من قبل. وفي كل مرة أزور هذه البلاد في أقصى الشمال الأوروبي، أزداد إعجاباً بإنجازاتهم الكبيرة

في خلق مجتمعات متقدمة متحضرة، لعلها أكثر تقدماً من مجتمعات أخرى في العالم.

تعجبني فلسفتهم الواقعية في الحياة، وقدرتهم على إقامة مجتمعات متوازنة تجمع بين التكنولوجيا الحديثة المتطورة، والبساطة وعدم الإسراف في رفاهة العيش. ويخيل للإنسان أحياناً، أنهم أكثر من أي شعوب أخرى في العالم، توصلوا الى حلول لمعضلات العدالة والحرية، وأقاموا مجتمعات يسود فيها العدل، دون التضحية بحرية الناس وحقهم في اختيار أساليب الحياة التي تناسبهم.

وقد كان تأثير دول اسكندنافيا في ميدان العلاقات الدولية في الفترة بعد الحرب العالمية الثانية، تأثيراً خيّراً، لقد أعطت دول اسكندنافيا المجتمع الدولي، سكرتيرين عامين للأمم المتحدة، وكان لهما، خاصة مستر داج همرشولد من السويد، تأثير عظيم في إرساء قواعد السلوك بين الدول، وفض النزاعات دون اللجوء إلى استعمال العنف. وعلى وجه العموم، فإن دول اسكندنافيا، كانت دائماً سباقة إلى المساهمة الإيجابية في حل الصراعات التي تنشأ بين الدول، والمشاركة بهمة وعزم في برامج التنمية في الدول الفقيرة، وفتح أبواب مؤسساتها وجامعاتها، لتدفق الخبرة منها إلى الدول الفقيرة.

إنني ذكرت إنني زرت مدينة (بيرقن) وجامعاتها هذه المرة بصحبة صديق هو نفسه من المنارات المضيئة في عمل الخير. ذلكم هو رجل الأعمال المثقف محمود عثمان صالح.

إنه من الناس النادرين، الذين يخصصون بعض ما أنعم الله عليهم

من خير، لنشر الثقافة وفتح الأبواب للتفاهم ومحاربة قوى الجهل والتخلف، وتعميق قيم الخير والإخاء بين الناس.

كل هذا الجهد الإنساني والثقافي العظيم، يتم عن طريق مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، الذي أنشأه الأستاذ محمود وعائلته، تخليداً لذكرى خالهم المرحوم عبد الكريم ميرغني.

وقد صار هذا المركز في وقت قصير، مصدر إشعاع ثقافي عظيم الأثر. إنه ينشر الكتب ويعقد الندوات، ويساهم مساهمة فعلية في عملية التبادل الثقافي بين السودان وبين مختلف دول العالم.

انتبه الأستاذ محمود مبكراً الى الأهمية المتزايدة لجامعة (بيرقن)، وإلى المضامين المهمة وراء وجود علاقة وثيقة بين جامعة في أقصى الشمال الأوروبي، وبين جامعة الخرطوم في قلب إفريقيا. فبدأ من جانبه في توثيق هذه العلاقة، والمساهمة في تقوية هذا الجسر الإنساني العظيم بين السودان والنرويج. إنه جسر لو قدر أن يبقى ويشتد إن شاء الله، فسوف يكون له بلا شك تأثير كبير.

هذا وقد سارع الأستاذ محمود فأهدى قسم الدراسات الإسلامية في جامعة (بيرقن) مجموعة من الكتب النادرة عن السودان نحو ستة آلاف مجلد، وهي كتب لا تقدر بثمن. فرحت بها جامعة (بيرقن) فرحاً عظيماً، ووضعتها في مكان ملائم في الجامعة، لتصبح في متناول الدارسين والباحثين الذين يفدون إلى الجامعة من شتى بلاد العالم.

وجدير بالذكر أن جامعة (بيرقن)، رغم حداثة سنها، فقد أصبحت

الآن ربما أهم مركز للدراسات الإسلامية في العالم، وتفوقت على جامعات أعرق منها مثل جامعة أكسفورد وجامعة لندن وجامعة (درم).

والواقع، أنه توجد وجوه شبه بين جامعة الخرطوم وجامعة (بيرقن).

جامعة الخرطوم مثل جامعة (بيرقن)، جامعة صغيرة الحجم نسبياً، وحديثة العهد نسبياً.

افتتحها الحكم البريطاني في بدايات القرن العشرين تخليداً لذكرى الجنرال غوردن الذي كان حاكماً للسودان، وقتل في الثورة المهدية.

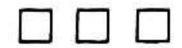
بدأت مدرسة ابتدائية، ثم مدرسة ثانوية، ثم صارت تعرف بـ (المدارس العليا)، بعد ذلك صارت كلية جامعية تابعة لجامعة لندن، وأخيراً صارت جامعة قائمة بذاتها.

استغرق نموها، إلى أن أصبحت جامعة مستقلة، أكثر من نصف قرن. ولكنها حين اكتملت، أصبحت جامعة متينة الأسس، يشار إليها في الحقل الأكاديمي، بأنها واحدة من أهم الجامعات في إفريقيا والشرق الأوسط.

نشأت مثل جامعة (بيرقن)، لتساهم في حل مشاكل محددة في بلد نام مثل السودان، فاهتمت بالبحوث الزراعية، خاصة البحوث المتعلقة بالقطن وهو من المحاصيل الأساسية التي يصدّرها السودان. ويعتبر مركز الأبحاث الزراعية في (ود مدني) في الجزيرة، من مراكز البحوث المهمة في إفريقيا.

كذلك اهتمت جامعة الخرطوم بالبيطرة، نظراً للثروة الحيوانية الضخمة التي يتمتع بها السودان.

ورغم هذه الاتجاهات العملية، فإن جامعة الخرطوم بحكم كونها الجامعة الوحيدة في السودان الى وقت قريب كانت تختار أنبغ الطلبة من سائر القطر، وتعطيهم إلى جانب التعليم العملي، تعليماً نظرياً ذا مستوى عاد جداً.





كل ذي قولة قالها

العنوان، من مطلع قصيدة للشاعر العراقي عبد الرزاق عبد الواحد، الذي كان للرئيس، أسير الأمريكان، صدام حسين، بمثابة أبي الطيب المتنبي لسيف الدولة الحمداني، مع الفارق الكبير طبعاً، وهو شاعر قرم، لولا أنه باع شعره في سوق الكساد، مهما أغدق عليه مولاه من نعم. وكان صدام حسين يطرب للمديح وتستفزه الأريحية، فأغدق أيما إغداق على شاعره المفضل، له الله، ماذا حل به الآن يا ترى؟

انها قصيدة شهيرة كان لها دوي في العراق في زمانها، يحتفي فيها الشاعر باستيلاء حزب البعث على الحكم. وقد جاء في مطلعها.

ألا كــل ذي قــولــة قــالــهــا
وكــلّ أخــي جــولــة جــالــهــا

وكـل طـمـوح جـمـوح الخيـال

إذا مـا بـدت صـولـة صـالـهـا

أنني أتمثل هذه الأبيات، ليس لأنني أريد أن أتحدث عن العراق المكلوم، رغم حبي للعراق وأهل العراق، لكن لأتحدث عن السودان الذي لا أظنه يقل أسى عن العراق، وإن اختلفت أسباب المأساة في الحالتين.

في السودان أيضاً، كل ذي قولة قالها، كل أحد من الزعماء الأفاضل، عقد حلفاً مع كل زعيم آخر، محمد عثمان الميرغني، زعيم التجمع المعارض لحكومة الانقاذ منذ مجيئها، متحالف منذ البداية مع (جون قرنق) زعيم الحركة الشعبية لتحرير السودان، والصادق المهدي زعيم الأنصار ورئيس حزب الأمة، هو الآخر جزء من تجمع المعارضة.

حكومة الإنقاذ ممثلة في رئيسها عمر البشير، ونائبه علي عثمان محمد طه، عقدت اتفاقات، أو هي تفاهمت، مع محمد عثمان الميرغني والصادق المهدي، والدكتور جون قرنق.

الدكتور الشيخ حسن الترابي، الذي كانت الأشياء المحزنة قد تفجرت من لدنه، انشق عن النظام الحاكم، أو أن النظام الحاكم قد انشق عنه، لكنه على أي حال، مضى يعقد التحالفات، متحالف خاصة مع (جون قرنق)، الذي يبدو أنه صار مركز الثقل، وإذا شئت قلت (الأتون) في جحيم المأساة السودانية، كذلك تحالف الترابي مع التجمع المعارض.

معنى ذلك أن هؤلاء الزعماء الأقيال، كلهم لاذ بعضهم ببعض واتكأ أحدهم على الآخر، فكأنما نبتت في أرض السودان الطيبة غابة من التحالفات والاتفاقات والوعود المتبادلة.

وقد حملت الأنباء، أن البشير وقرنق، وهم قطبا الرحى في الحرب الدائرة بين شمال السودان وجنوبه، قد اتفقا على تقسيم الثروة وتوزيع المناصب وحمل ديات القتلى، وظهرا في شاشات التلفزيون، يمسك أحدهما يد الآخر يبتسمان ويضحكان. وزار الخرطوم لأول مرة منذ حقب، وفد من الحركة الشعبية لتحرير السودان، فاستقبلتهم جماهير عظيمة امتلأت بها الشوارع، وسالت الدموع على وجوه الزوار المستقبلين، مثل عشاق، طال بهم البعاد، واستمر في قلوبهم الشوق.

وقيل إن الرئيس الأميركي (جورج بوش)، وهو من هو في علو شأنه وجلالة قدره، تفضل فاتصل بالبشير وشكره وهنأه على جهوده في تحقيق السلام الشامل العادل، وحثّه على مواصلة السعي.

هذا، وقد انطلقت وسائل الاتصال الجماهيرية تحتفي بالسلام، وتهلل له وقد افترضت ان السلام أصبح تحصيل حاصل، وأظهرت في ذلك فنوناً عجباً حتى لكأن السودان حقاً، دولة ديموقراطية حرة مستقلة.

ماذا بقي إذاً؟ استعدادات العرس قد اكتملت، وأهل السودان الصابرون ينتظرون، اليتامى والأيامى، والمكلومون في أبنائهم وأخوانهم، الذين أخرجوا من ديارهم والذين طردوا من أعمالهم والذين هاجروا فراراً من الظلم والاستبداد.

السودان بطاقاته المعطلة وثرواته المبدّدة، كلهم ينتظرون، فماذا بقي إذاً؟

لو كان ملايين القتلى من الجنوب. والشمال ينطقون، لسمع لهم دوي ولصرخوا بصوت واحد، كفى احترابا، كفى قتالاً، كفى حقداً، كفى إهداراً، حي على السلام، حي على الوئام، حي على الأمن، حي على العمل.

□ □ □

خروج الترابي من الجب

الدكتور حسن الترابي رجل محظوظ، فإن الحياة تعطيه فرصة أخرى، والحياة عادة ليست سخية في إعطاء الفرص.

إن الله سبحانه وتعالى، أسبغ عليه نعماً كثيرة، أعطاه الذكاء والبيان والفصاحة، ويسّر له تحصيل العلوم الدينية والدنيوية، وجعله للناس حجة وإماماً، وقد يختلف الناس هل الدكتور الترابي قد أحسن استغلال هذه الهبات الإلهية أم لا؟

اليوم ينعم الله عليه نعمة إضافية، بعد أن مكن له في بلاد السودان، يأمر وينهي، ويعطي ويمنع، ويأمر لمن شاء أن يعذب أو يسجن أو حتى أن يسقط فجأة من عليائه، ويخرج عن جاهه وسلطانه، وجنده وأعوانه، أخذه أصدقاؤه وخلصاؤه بالأمس من

كل ذلك وأدخلوه في غيابة الجب، وكأنها قصة يوسف عليه السلام معكوسة.

وقد كان ذلك ولا شك امتحاناً عسيراً له، كأن الله سبحانه وتعالى أراد له أن يذوق على أيدي أنصاره السابقين، بعض ما ذاق الناس على يديه. لم يكن حبسه القسري في مرارة بيوت الأشباح والزنازين التي وصفها الذين دخلوها، بأنها لا تسمح للجالس أن يقف، ولا الواقف أن يجلس، ولا المضطجع على جنبه الأيمن أن ينقلب على جنبه الأيسر، وغير ذلك أهوال يشيب لها الرأس.

ولا يشفع للدكتور الفاضل أمام الله والناس، أن يقول إنه لم يكن يعلم وأنه ليس مسؤولاً عما حدث، إن الله يعلم، والناس يعلمون، إن كل تلك الأهوال قد ارتكبت، إن لم يكن بتدبيره، فقد حدثت من دون اعتراض منه.

كان الله به رحيماً حقاً حين انتزعه من عالم الغرور والكبرياء الذي كان يحيط به، وزج به في غيابة الجب، كي يثوب الى نفسه ويتمعن ملياً في كل الذي جرى له، وجرى للناس على يديه، وكان المنفذون لإرادة الله، أولئك الذين كانوا قد وضعوه في القمة من قبل.

ولعله فعل، لأن بعض ما قاله إثر خروجه من الحبس كما أوردت الصحف، أن الجبهة الاسلامية بزعامته، اضطرت الى إحداث تغيير عسكري في البلاد قبل نحو خمسة عشر عاماً. ولكنها اتعظت من التجربة، ويعجب الانسان، هل كان لزاماً أن تدخل الجبهة

الاسلامية في التجربة أصلاً؟ وهل كانت تحتاج إلى خمسة عشرة عاماً حسوماً لتتعظ من التجربة؟

كم ربح السودان في هذه الأعوام وكم خسر؟ وكم ربح الاسلام وكم خسر؟ وكم ربح الدكتور الترابي وكم خسر روحياً وعقلياً؟ اذ يفترض فيه أن يكون قبل كل شيء منبع إشعاع روحي وفكري، كما يكون الزعماء أولو العزم.

لكنني أرى ان النعمة الكبرى التي يسبغها المولى سبحانه وتعالى على الدكتور الفاضل، انه أخرجه اليوم من غيابة الجب، والدكتور أول من يعلم أنه كما تكون العطايا في حنايا البلايا، فكذلك تكون البلايا في جنايا العطايا.

إنني بوصفي رجلاً مسلماً من غمار الناس، أرجو للدكتور كل الخير، وقد سعدت انه خرج من ضيق الحبس الى براح الحرية، وأخذ من فوره، كعهده دائماً، يملأ الدنيا ويشغل الناس.

لكنني أنصحه نصيحة خالصة لوجه الله، بوصفي رجلاً من غمار الناس، أنك اليوم تواجه أصعب امتحان واجهته في حياتك، فكر جيداً ماذا تصنع أمام الله والناس، أي طريق تسلك؟ وأي وجهة تتجه؟ هل تعكف على عقلك وروحك، فتنجو بنفسك وتصير حقاً نبراساً يستضيء به الناس؟ أم تنغمس مرة أخرى في مستنقع السلطة والحكم والتحالفات والمؤامرات؟

إنني أسأل الله لك العافية، وأسأله أن يهدينا وإياك لما فيه الخير.

أضغاث أحلام في مطلع العام

جئت أزور شقيقي الأستاذ بشير محمد صالح الذي يعمل مستشاراً قانونياً في وزارة الأشغال والاسكان في مملكة البحرين، انه من جهابذة رجال القانون في السودان، حيث كان من قضاة المحكمة العليا وهو لي نعم الأخ ونعم الصديق، وكما قال الدكتور عبدالله الطيب في ابن عمه الشاعر القرم محمد المهدي المجذوب:

وقد سرني أن كان لي من أرومتي
صديق عليه المجد حرّ حُلاحِل

من كان يجرؤ ان يستعمل كلمة مثل (حُلاحِل) هذه الأيام غير عبدالله الطيب؟

جئت الى مملكة البحرين من دولة قطر، وهما كما لا يخفى على

خفقة جناح طائر، احداهما عن الاخرى، واذا وقفت على ساحل البحر عند (الزيارة) تستطيع ان ترى شاطئ البحرين.

لكنني أسوح في بلاد الله متشبثاً بجواز دولة السودان الأخضر، ولا غرو ان تمسكي به ضرب من العنجهية الحمقاء. لماذا لم آخذ جواز الإنجليز، وهم قوم لي عندهم صلة ورحم؟ وهو جواز ما يزال تفتح له الأبواب، إذ تصك في وجه جواز دولة السودان.

وأنا مخطئ في كلتا الحالتين، مخطئ اني ترفعت من أخذ الجواز البريطاني ومخطئ انني غفلت فلم اذكر ان جواز دولة السودان يحرك المخاوف والشكوك في هذا العصر والأوان، حتى لدى الاقارب والجيران.

أهملت أن آخذ الفيزا للبحرين من مكان الاقامة الذي هو لندن، وقلت آخذها في قطر، كما أخذتها عام أول في الرياض بلا كثير مشقة. خلاصة القول إنني كدت أعدل عن زيارة البحرين، وبعد لأي أعطوني الفيزا بعد ان تدخل السفير السوداني في قطر الاستاذ عمر حيدر أبو زيد، وهو انسان فاضل (صباح خير) كما نقول في السودان. تدخل لدى زميله البحريني فبارك الله فيهما.

حين وصلت الى مطار المنامة، منحني الضابط أسبوعين، كان شاباً ودوداً لكنه رغم وده كان بخيلاً، قلت له (يا أخي خليها شهر) فقال وهو يبتسم (تمدد الإقامة بسهولة بعدين)، وما كان ضره لو انه جعل الاقامة شهراً؟ انني جئتهم زائراً ومحباً لا أطلب منهم عملاً ولا أضمر لهم شراً. ولي بينهم معارف وأصدقاء.

لذلك فانني في أول هذا العام، الذي أرجو أن يجعله الله عام سعادة وخير على الامة العربية والامة الاسلامية، بل وسائر الخلق والامم، أتمنى لو ان قادة العرب يربطون جأشهم ويحزمون أمرهم، ويقدمون في قمة من قممهم على إصدار قرار يلغون به هذه الفيزات بين دولهم.

مما تخافون يا جماعة الخير؟ الاشرار الذين يفخخون السيارات وينسفون العمارات ويقتلون الناس، لا يدخلون عن طريق المطارات، إنهم على الارجح يجلسون في جحورهم بينكم. وهم قلة قليلة جداً، وأغلب عباد الله أناس مسلمون يدخلون بسلام ويخرجون بسلام.

يا ليتكم في هذا العام الخامس من القرن الحادي والعشرين تعملون قفزة من قفزات الخيال ــ كما يقال ــ فتفكون القيود وتفتحون الحدود وتتركون الناس يحس الواحد منهم انه حقاً عضو في جسد هذه الامة العظيمة وانه ينتمي بالفعل الى هذه الارض الواسعة المترامية الاطراف، التي ما يزال اكثرها خلاء فارغاً غير مأهول. وقديماً قالوا ان الطبيعة تكره الفراغ.

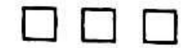
وان لم يصل كرمكم الى هذا الحد، فليتكم على الاقل تصنعون كما يصنع الاوروبيون، انهم كما تعلمون يمنحون الانسان فيزا واحدة قد تكون لمدة عام كامل تخول له دخول البلاد كلها المنضوية تحت مظلة المجموعة الأوروبية، هذا رغم انهم يملكون ما يخافون عليه اكثر من العرب.

ألا يكون شيئاً جميلاً لو ان مجموعة دول الخليج تصنع مثل هذا؟

ومجموعة دول الهلال الخصيب ومجموعة دول المغرب ومجموعة وادي النيل والقرن الافريقي.

بلى، سوف يكون عملاً يثلج الصدور، وتقر له العيون، خاصة عيني صديقك العلامة الشاعر الدكتور درويش مصطفى الفار، الذي ظل يكتب طوال نحو عشرين عاماً عموداً في صحيفة (الراية) القطرية عنوانه (أضغاث أحلام).

لقيته مؤخراً في الدوحة وقد بدأ يهن منه العظم ويشتعل الرأس شيباً لكنه ما يزال يحلم وما يزال يؤمل خيراً.



ومصر الرياض

رأيت على شاشة التلفزيون المصري منذ أيام، الدكتور عاطف عبيد رئيس الوزراء يتحدث في مجلس الشعب عن الحالة الاقتصادية، ومن بعض ما علق في ذاكرتي من حديثه قوله، ان الارض الزراعية في مصر منذ عهد الفراعنة لم تتجاوز خمسة ملايين فدان.

وقد استطاعت الحكومات المصرية في الآونة الأخيرة زيادة الرقعة المزروعة بواسطة استصلاح بعض الاراضي بمقدار مليوني فدان، فصار الاجمالي الآن سبعة ملايين فدان.

وقال الدكتور عاطف عبيد ان النمو السكاني في مصر في ازدياد حتى بلغ عدد السكان الآن نحو سبعين مليوناً وكان يقتضي مضاعفة الرقعة المزروعة الى تسعة عشر مليوناً، كي تستطيع مصر ان تفي بالمتطلبات الغذائية للسكان، ولكن ذلك أمر مستحيل.

معروف ان مصر في محاولاتها المستبسلة لزيادة الأرض المزروعة، بدأت منذ تسعة أعوام في انشاء مشروع (توشكا) او (توشكي) في جنوب القطر، فشقت القنوات، وركبت مضخات المياه الضخمة لرفع مياه النيل ودفعها في اراضي الصحراء الغربية، وهو مشروع كما نعلم حرك كثيراً من الجدل في مصر، حتى بين الخبراء، عن جدواه، وهل النتائج المرجوة منه تبرر الأموال الكبير التي تنفق عليه؟

كذلك قرأت في الصحف، ان مصر تسعى الى زراعة القمح في رومانيا، ولا أخفي انني لم افهم تماماً كيف يتم ذلك. هل المقصود هو ان مصر سوف تشتري اراضي زراعية في رومانيا، وترسل من عندها فلاحين مصريين لزراعة تلك الأراضي؟

الاحتمال الثاني وهو الأرجح، ان رومانيا سوف تزرع القمح في اراضيها هي، بواسطة فلاحين رومانيين، وتشحن المحصول الى مصر. فإذا كان هذا هو المقصود فما هو الفرق بينه وبين ان تشتري مصر قمحاً رومانياً بالطريقة المتبعة بأسعار السوق؟

هذا، وثمة شيء آخر زاد من حيرتي في أحوال هذا العالم الذي نسميه (العالم العربي) من باب العشم لا واقع الحال، قبل أن أهبط الديار المصرية الكريمة، وهو أمر اعتدت عليه في مثل هذا الوقت في السنوات الاخيرة، فراراً من صقيع بلاد الأنجلوسكسون إذ وهن العظم واشتعل الرأس، أقول إنني قبل ذلك قمت بجولة سريعة في بعض بلاد الخليج، وتلك بلاد عرفتها وأحببتها.

لفت نظري هذه المرة، وكنت قد لحظته أيام إقامتي، ثمة منذ نحو

عشرين عاماً، غلبة الهنود في تلك البلاد. وقد تجولت في السوق في إحدى مدن الخليج فلم أجد عربياً واحداً، ولم أسمع إلا لغة عربية مكسرة، مخلوطة بلغة إنجليزية مكسرة.

وأسارع الى القول، إن الهنود على الرأس والعين فهم أخوتنا في البؤس، وبعضهم أخواننا في الدين، فلا تثريب عليهم ان يجد بعضهم الرزق في بلاد العرب، خاصة ان عدد الهنود في الهند وحدها، دعك عن باكستان وبنغلادش، بلغ نحو مليار ابن آدم، يعني ألف ألف مليون.

أضف الى ذلك اننا جميعاً في هذه البسيطة التي يتكلم أهلها باللسان العربي المبين، قد أعجبنا بقصة كفاح الهند لنيل الاستقلال، وبلغ حبنا للمهاتما غاندي أن شوقي العبقري رحمه الله حياه بقوله:

سلام الله يا غاندي
وهاك الزهر من عندي

سلام حالب الشاة
سلام ناسج البرد

وأيضاً همنا حباً بجواهر لال نهرو العظيم، وأنا واحد من الذين قرأوا قصة حياة المهاتما، وقصة حياة نهرو ورسائله الى ابنته أنديرا وغير ذلك. وقد زرت (دلهي) منذ عشرين عاماً، فأعجبني نظامها وحسن هندامها، وان الهنود نجحوا حيث فشل العرب، في إقامة نظام ديموقراطي تجري بمقتضاه انتخابات تشمل كل تلك الرقعة الشاسعة وكل ذلك الطوفان من البشر.

كل ذلك حق، ولكن ما بالكم بمصر؟ كيف تحل مصر مشكلة تكاثر سكانها؟ ماذا تصنع؟ والى أي قبلة تتجه؟ وهل تلك مشكلة مصرية تخص مصر وحدها أم هي مشكلة تهم (الأسرة) العربية كلها، إن صح أنها بالفعل أسرة؟

□ □ □

... ومصر الرياض

ليلة الأربعاء ٢٨ يناير (كانون الثاني) عام ٢٠٠٤، شاهدت على القناة الأولى على التلفزيون المصري، ندوة كانت الأخيرة في سلسلة ندوات عن الغذاء وسبل توفيره. كانت ندوة رصينة، جُمع لها عدد من الزراعيين والاقتصاديين من الخبراء وأساتذة الجامعة.

تطرقت الندوة إلى القضايا المهمة كلها المتعلقة بتوفير الغذاء للملايين المتكاثرة في مصر، زيادة رقعة الأرض الزراعية عن طريق استصلاح أراضي الصحراء، وحسن استغلال الأرض الزراعية الموجودة أصلاً، والتوسع في استخدام التقنيات الحديثة، الى غير ذلك.

وفي الثلث الأخير من الندوة، انتهى الأساتذة الأفاضل الى موضوع كنت أنتظر طرحه بفارغ الصبر، ألا وهو محاولات مصر سد

الفجوة الغذائية، بزراعة القمح خارج مصر، وقد ذكر أحد الخبراء رومانيا وكندا وزامبيا.

سأل أحد الأساتذة السؤال الذي كان يدور في ذهني، وهو: ما هو الفرق بين ان تلجأ مصر الى هذه الوسيلة، وبين ان تشتري ما تحتاج إليه من قمح، حيثما وجدته، بالطرق العادية؟

وذكر أحد الخبراء، أن مصر حاولت زراعة القمح في زامبيا، لكنها لم تستمر في المحاولة بسبب صعوبة التنقل.

وقال خبير آخر: القمح محصول استراتيجي، الأمر الذي يعني انه مرتبط بتقلبات الأحوال السياسية في العالم. فإذا اضطربت الأحوال السياسية، أصبح الحصول على القمح المزروع خارج مصر غير مضمون.

وفجأة عبر أحد الأساتذة عن فكرة كانت تلح علي منذ البداية وكنت أتعجل أولئك السادة الأجلاء ان يصلوا إليها قال:

«يا اخوان الاقربون أولى بالمعروف، في السودان؟ نحن كان لنا محاولات لزراعة القمح في السودان. وبالفعل نحن والسودانيون نجحنا في إنتاج سلالة جديدة من القمح أسميناها (التكامل)».

لا اكتمكم انني حينئذ شعرت بالفرح، وقلت: الحمد لله الآن سوف أفهم ويفهم غيري من المشاهدين، لماذا تسافر مصر الى رومانيا وكندا وزامبيا جرياً وراء رغيف الخبز لاشقائنا الأعزاء، والسودان منها على خفقة جناح طائر؟

ولماذا مصر تنفق الأموال الطائلة في (استصلاح) رمال الصحراء وفي السودان ما يقدر بما بين مائتي مليون الى اربعمائة مليون فدان من اراض خصبة كل ما تحتاج اليه هو ان تنثر عليها البذرة وتدلق عليها الماء. أراض في لون المسك وفي غلاء التبر.

وفي السودان غير النيل الأزرق والنيل الأبيض وهما فرعا نهر النيل الكبير يوجد نهر (أتبرا) ونهر (الدندر) ونهر (الرهد) ونهر (السوباط) و(بحر العرب) و(بحر الزراف)، وهي كلها أنهار دائمة الجريان، هذا بالاضافة الى انهار موسمية مثل نهر (القاش) الموار في الشرق.

سكان السودان اليوم نحو ثلاثين مليوناً في رقعة تقدر بمليون ميل مربع وسكان مصر سبعون مليوناً يتوقع ان يبلغوا مائة مليون في عام الفين وعشرين أو نحوها، وهم محصورون في رقعة ضيقة من الاراضي الزراعية على عدوتي النيل.

أيام الاستعمار البريطاني، كانت الحركة مفتوحة بين شمال وادي النيل وجنوبه فهاجرت جموع كبيرة من المصريين الى السودان، حيث تزاوجوا وتوالدوا واستقروا، تجدهم اليوم في (شندي) وفي (أتبرا) وفي (دنقلا) وفي (الخرطوم بحري)، وفي (الأبيض) وفي (كوستي) وغيرها، استوطنوا واختلطوا واصبحوا سودانيين لا تفرق بينهم وبين السودانيين (أولاد القبائل) الذين وجدوا ثمة منذ قديم الزمان.

ثم جاء الاستقلال واستأثر كل فريق بما عنده، وأغلقت الحدود، ووضعت قيود على حركة الناس، واصبح السفر بجوازات وفيزات وشرطة وحراس، اليوم صار القريب بعيداً، والممكن مستحيلاً.

كنت أتمنى ان يركز أولئك الأساتذة الأجلاء اهتمامهم على تلك القضايا المصيرية المحيرة، وقلت يا ليت لو كان معهم خبراء سودانيون، حتى نعرف جلية الأمر، ونتعرف على هذه (الإشكالية الوجودية)!

لكن لسوء الحظ، سارع مدير الندوة فأوصد الباب، وقال بصوت خفيض، يوحي بأنه يعرف أشياء لا يعرفها أولئك الأساتذة الأفاضل:

«نحن طبعاً عارفين ان المشكلة ان ما فيهوش استقرار سياسي».

يا سبحان الله!، وهل في رومانيا استقرار سياسي؟ وهل في زامبيا استقرار سياسي؟ وأين كندا من مصر، كما قال شوقي رحمه الله:

وأين من المنش بحر الغزال
وفيض نيانزا وتهتانها؟

وأين التماسيح من لجّة
تموت من البرد حيتانها؟

□ □ □

... ومصر الرياض

في نهاية الأمر، سوف يجد كل من الجارين، إن لم يكونا قد وجدا بعد، أن الحل للإشكال (الوجودي) لكل واحد منهما، هو عند الآخر، وأن لا فكاك لأحدهما عن الآخر، مثل ليل النابغة الذبياني.

تبحث مصر عن الحل في رومانيا، أو كندا أو أوستراليا، ولكن الحل أقرب من ذلك، الامتداد أو الحيز الحيوي لمصر، أو الـ Liebenstraum كما يقال، هو في السودان.

هذه العبارة (ليبنستروم) اكتسبت رواجاً وطعماً مريراً أيام حكم النازيين لألمانيا. كانوا يتحدثون كثيراً عن (الحيز الحيوي) ولم يلبثوا ان اشعلوا حروباً في اوروبا لتوسيع (الحيز الحيوي)، رغم ان المانيا دولة واسعة اصلاً وقد أنعم الله عليها بخيرات كثيرة.

ما من عاقل يتصور ان مصر يمكن ان تغزو أياً من جيرانها في أي وقت في المستقبل، بغية ايجاد منافذ لسكانها الذين يتكاثرون عاماً بعد عام. فمنذ أيام محمد علي باشا، لم تغز مصر أحداً، إلاّ دفاعاً عن النفس، كما في حروبها مع اسرائيل في القرن العشرين، وهؤلاء الجيران ليسوا أعداء أو أغراباً، ولكنهم أخوة (أشقاء)، وحتى الجار الذي ليس أخاً شقيقاً، قد يدخل في زمرة أبناء العمومة لو هو أعطى القرابة حقها و(هبط في الأرض)، كما نقول، ولزم حدوده، وعاش عيشة طبيعية مثل بقية خلق الله.

إنما كون مصر، التي يصفونها دائماً بأنها (الشقيقة الكبرى) وانها (السند) و(العضد) و(الرباط) والتي وصفها احمد شوقي رحمه الله بقوله:

ومصر الرياض وسودانها
عيون الرياض وخلجانها

أقول، كون مصر تؤثر التعامل بالحسنى، فهذا لا يعني أن هؤلاء (الأخوة الأشقاء)، يتحلقون حولها ناعمين فاكهين، بينما المصريون يضطرهم ضيق الحال، الى أن يذهبوا الى آخر الدنيا الى أقوام ليسوا أشقاء ولا أقارب ولا جيران، يزرعون القمح، ليضمنوا عيش الكفاف.

بالله هل هذا صنيع صديق؟ هل هذا صنيع شقيق؟ كما تقول الاغنية الرائعة للمغني الزنجي الاميركي (بول روبسن)؟

وقديماً قال الشاعر العربي:

فإن قلتموا إنا ظلمنا فلم نكن
ظلمنا ولكنا أسأنا التقاضيا

ألا يكون من قبيل (سوء التقاضي) ان ينظر المرء الى ابن عمه، بل الى أخيه الشقيق، وهو يتقلى في الرمضاء، بينما هو جالس في الظل، لا تستفزه عاطفة انسانية، ولا اريحية اخوية، ولا حتى ادراك لصحته الذاتية، لأنه بالتأكيد لن يظل يتفيأ الظل وقتاً طويلاً، والناس يتقلّون حوله في الهجير.

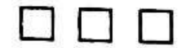
الأمر، يا لكم الخير، أخطر من ذلك، هذا الكوكب الذي نقطنه، وهو صغير أصلاً، قد ضاق بقطانه، كما يظل يردد العارفون، حتى لكأن البشرية كلها قد عادت الى مبدئها، عادت الى الفلك المشحون، سفينة سيدنا نوح، وهي تسير في موج كالجبال ولا عاصم من امرهم.

ها نحن نرى في زمان العولمة هذا، كيف ان مبادئ مقدسة في القانون الدولي، لم تعد لها أية أهمية، كان مبدأ (السيادة Sovreignty) مبدأ مقدساً في تعامل الدول بعضها مع بعض، لكننا رأينا كيف ان دولاً اجتاحت دولاً أخرى بذرائع واهية لم يكن يقبلها القانون الدولي من قبل.

وصرنا نسمع في عصرنا هذا بما يسمى الضربات الاستباقية، Pre-emptive Strikes، وذلك ان تقرر دولة ما من تلقاء نفسها، أن دولة أخرى، تضمر نحوها شراً، فتهاجمها دون ان تكون الدولة الأخرى قد فعلت اي عمل عدواني.

وصرنا نسمع ان موارد الدول، من ارض ومياه ومعادن وخلافها، ليست ملكاً لهذه الدول، لمجرد انها توجد في رقعة من الأرض تظن تلك الدول انها تسيطر عليها.

هذه كلها، مقدمات لعقيدة سياسية جديدة Doctrin، والعقائد السياسية دائماً يصوغها الاقوياء، وهي تتلخص في أن الموارد المحدودة في هذا الكوكب لم تعد، مع تكاثر البشر، تحتمل ان تترك بلا ضابط ولا رابط، لا بد من يد واحدة قوية تسيطر على الكوكب كله وتتحكم فيه، وتوزع موارده بالعدل (كما تزعم العقيدة الجديدة).



... ومصر الرياض

تبدو في الأفق هذه الأيام، بشائر تحولات حقيقية في العلاقة بين البلدين الشقيقين، ظلا منذ سنوات يتأرجحان بين الوصال والهجر، كحال بعض العاشقين، يقتربان حتى تقول يجتمعان، ثم يبتعد أحدهما عن الآخر، فكأنهما لن يلتقيا أبداً، وذات مرة، كادت الحرب تستعر بينهما.

في هذا العهد الذي يُظل السودان بظله هذه الأيام، وصلت العلاقة بين القطرين الأخوين أسوأ حالاتها. ومن بعض ما بدر منهم، أنهم صادروا الممتلكات المصرية وأغلقوا المؤسسات التعليمية مثل جامعة القاهرة فرع الخرطوم.

هذه الجامعة ظلت أبوابها مشرعة على اختلاف العهود منذ الاستقلال، وكانت تؤدي خدمة تعليمية عظيمة وتسد حاجة

واضحة للتعليم الجامعي في السودان، وقد عمل فيها أساتذة أجلاء منتقون بعناية. وقد صارت بمرور الأيام صرحاً موازياً لجامعة الخرطوم، وتوثقت وجوه التعاون بين الجامعتين، كما ان جامعة القاهرة فرع الخرطوم، ضمت من العناصر المهمة في تدعيم العلاقات الاخوية بين مصر والسودان.

وكان لمصر أيضاً عدد من المدارس الثانوية المنتشرة في ارجاء القطر، وقد فتح بعضها في عهد الاستعمار البريطاني، كانت بعض الحكومات في العهود المتعاقبة تتحدث من وقت لآخر عن دمج هذه المؤسسات التعليمية المصرية في سياق النظام التعليمي السوداني الموروث عن فترة الحكم البريطاني، وأحياناً كانوا يقولون إن جامعة القاهرة فرع الخرطوم، كانت تتساهل في قبول الطلبة بالمقارنة إلى جامعة الخرطوم (النخبوية). وانها تخرج أعداداً من الطلبة أكثر مما يلزم، رغم ذلك لم يفكر أحد في اغلاقها.

كانت حجة حكومة (الانقاذ)، انها فتحت أعداداً كافية من الجامعات السودانية، ولم تعد توجد حاجة الى جامعة مصرية في السودان، لكن الناس يعرفون ان فتح اكثر من عشرين الف جامعة واحدة، ضربة لازب، في نوبة من نوبات الهستيريا التي اصبحت سمة من سمات هذا العهد، كان عملاً أخرق سوف يعاني السودان أمداً من عواقبه الوخيمة. ويجب القول إنهم إذ اغلقوا جامعة القاهرة فرع الخرطوم، لأنها مصرية، أعملوا معاول الهدم في جامعة الخرطوم بحجة انها متأثرة بالنظام الانجليزي، حتى كادوا يقضون عليها!

من ناحية أخرى، لم تأل الحكومات المصرية بعد الثورة هي

الأخرى وسعاً في تخريب العلاقة، ولم تخل أعمالها أحياناً من الغباء والرعونة، ومن أعجب تلك الاعمال، إثارة قضية (حلايب) في الطرف الشمالي الشرقي للسودان، والجنوب الشرقي لمصر.

انه إقليم قاحل، ترتاده قبائل رحل أغلبها في السودان من البشارين والهدندوة والعبايدة، وهل هو مصري أو سوداني؟ أمر يحرك جدلاً قانونياً طويلاً، لكن سواء كان مصرياً أو سودانياً فما هو وزنه في حساب العلاقة الأزلية بين البلدين والأهداف المصيرية الكبرى لهما معاً؟

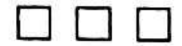
أضف إلى ذلك، أن مصر ردت على تحرشات الحكومة السودانية بأنها قيدت حرية دخول السودانيين الى أراضيها، واتخذت اجراءات قاسية لم تتضرر منها الحكومة السودانية، بل تضرر منها الشعب السوداني الذي ظل وفياً لمصر على مر العهود. إنه الشعب نفسه الذي حمل الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بسيارته على الأكتاف في الخرطوم عام ١٩٦٧ وكان يومئذ قائداً كسيراً مهيض الجناح، احتفوا به كأنه قائد منتصر.

السودانيون ينسون أحياناً أن مصر كانت تسد العجز في موازنة السودان أيام (الحكم الثنائي)، حتى بعد عام ١٩٢٠، والمصريون ينسون أحياناً أن السودان وقف الى جانبهم دائماً في أحلك الظروف بصرف النظر عن توجه الحكم الموجود وقتها في الخرطوم.

الآن يبدو ان المياه سوف تعود الى مجاريها، لكن الواحد منا، لكثرة ما مر به من دواعي القنوط، يكاد لا يصدق ان شيئاً جميلاً سوف يحدث.

يبدو الآن ان ولاة أمورنا في شقي وادي النيل، قد عقدوا العزم أخيراً على أن يسيروا في الطريق الصحيح. يقولون الآن، انهم سوف يبيحون حرية التنقل وحرية السكن وحرية العمل وحرية الاستثمار.

يا لها من نعم غامرة إن صدق الفأل! أسأل الله أن يصدق وأن يسدد الخطى على طريق الخير والرشاد.



البحور والأوزان!

أرجو ألا يكون إخواننا الإيرانيون قد عادوا الى تنشئتهم القديمة، كما كانت على أيام الشاه. ذلك ما فهمته من بعض ما قرأته في صحف الخليج، أخذوا يتحدثون من جديد عن الخليج، هل هو فارسي أم عربي؟

إنني حين أقول (اخواننا) فإنني أعني ذلك حرفياً، إذ لا يخفى أن الفرس كانوا شركاء في صنع الحضارة الاسلامية. ويكفيهم شرفاً أن ــ الرسول صلى الله عليه وسلم ــ قال عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي (سلمان منا آل البيت).

ثم ظل الفرس بعد ان فاءوا الى ظل الاسلام الوارف، يسدون المكرمات لأمة المسلمين، مكرمة تلو مكرمة، اعطوا الاسلام البخاري ومسلم والرازي وفقهاء آخرين، يضيق عنهم الحصر،

وأعطوا الحضارة الاسلامية ابن سينا وابن المقفع وبشار وابن العميد والمتصوف الكبير جلال الدين الرومي ومدرسة كاملة في التصوف، وأعطت فارس الحضارة الاسلامية الشعراء الفرس العظام أمثال السعدي والشيرازي. وهذا الذي ذكرته كله نقطة في بحر.

ذلكم كله حق، والمسلمون جميعاً على اختلاف اعراقهم يدركون ذلك والعرب أول من يقر بذلك، ولا يضير العرب انه ظهر بينهم في آخر الزمان رئيس أحمق، والحماقة ليست وقفاً على جنس بعينه، أشعل حرباً طائشة ضد ايران وأضفى عليها صفة حرب مقدسة بين مسلمين ومجوس وأوحى له جنونه ان يسميها (معركة القادسية). انها حقبة مؤلمة من التاريخ نرجو ان يكون عفا عليها الزمن وأهال فوقها رمال النسيان.

إنني كانت حاضراً في اجتماع وزراء اعلام دول الخليج الذي اثيرت فيه القضية اول مرة، كان ذلك منذ قرابة ثلاثين عاماً في البحرين. وكنت تلك الأيام اعمل في وزارة الاعلام القطرية، أقر الوزراء انشاء وكالة أنباء خليجية وسمّوها (وكالة انباء الخليج).

كان وزير الاعلام العراقي تلك الأيام طارق عزيز. قال فجأة، وقد ظن الوزراء انهم فرغوا من دراسة الموضوع، يا اخوان، عن أي خليج تتحدثون؟ توجد خلجان كثيرة في العالم، نحن نقصد الخليج العربي، لماذا لا نسميها «وكالة أنباء الخليج العربي؟»

صمتوا جميعاً ونظر بعضهم الى بعض وكنت أجلس بجوار الدكتور عيسى غانم الكواري وزير الاعلام القطري وأشهد من خبرتي في العمل معه، انه أوتي عقلاً راجحاً وحكمة، همس في

أذني أن اذيع الخبر ان ذك سوف يجر عليهم مشاكل لا حصر لها.

كذلك حدث. ما ان اذيع الخبر، حتى ثارت ثائرة ايران وقاد الحملة شاه ايران شخصياً، وكان تلك الأيام في ذروة جبروته وغروره. هدد دول الخليج بعظائم الأمور ان هي لم تغير الاسم، فآثروا السلامة وعادوا أدراجهم الى الاسم الذي اختاروه بادئ ذي بدء. وعلى اي حال، فإن الوكالة لم تلبث ان انهارت، كما انهارت مؤسسات مشتركة أخرى.

هذا، وكانت الخرائط حتى خمسينيات القرن الماضي تسميه «الخليج الفارسي» وأظن البحارة والجغرافيين العرب الأوائل هم الذين أعطوه الاسم، ثم في فترة الغليان الثوري في مصر، اسماه صوت العرب. ولعل أحمد سعيد شخصياً هو الذي سماه (الخليج العربي) وكانوا يقولون في ذلك الزمان البهيج (من المحيط الهادر الى الخليج الثائر)!

وسواء كان اسمه (العربي) او (الفارسي) فنحن نعلم ان هذه الاسماء لا تعني شيئاً، هل البحر الاحمر أحمر بالفعل؟ وهل البحر الاسود أسود؟ وقد كان العرب أيام رجحان كفتهم في (أوزان) القوة يقولون (البحر الشامي) فسماه الاوروبيون (البحر المتوسط).

هل (المحيط الهندي) يعني ان دولة الهند تملك ذلك الخضم الطويل العريض؟

ان البحر الذي يفصل ما بين فرنسا والجزر البريطانية، اسماه

الانجليز (بحر الشمال) واسماه الفرنسيون (المانش) فلماذا ـــ يا اصلحنا الله واياكم ـ تتمسكون بالشكليات ان لم نقل الصغائر؟ ان القلوب معكم فأنتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الحضارة.

ولا يخفى عليكم ان الخليج اليوم، ليس فارسياً ولا عربياً، انه خليج امريكي تمخر عبابه رائحة غادية السفن الامريكية، كأنها الجبال المحملة بالعتاد الحربي خاصة الصواريخ النووية.

إنها أيام يداولها الله بين الناس، وأنتم كونكم ثورة اسلامية، حري بكم ان تدركوا ذلك اكثر من غيركم.

□ □ □

أبو عبدالله الآخر

كان الأسبان حينئذ أكرم من الأمريكان اليوم. حين ظفروا به أخيراً. بعد أن لعبوا به كما يلعب القط بالفأر. سمحوا لأبي عبد الله الصغير آخر ملوك العرب في الأندلس، أن يخرج من غرناطة، بقدر ما سمحت له ظروفه التعيسة من أبهة. أخذ معه خدمه وحشمه وحريمه وبعض أعوانه. ويروي بعض المؤرخين، أنه طلب منهم ان البوابة التي يخرج منها، لا يدخل أو يخرج منها أحد بعده. ورغم أن (إيزابلا الكاتوليكا) كانت امرأة قاسية، لكنها كما يبدو، لم تخل من حس السخرية، فأجابوه إلى طلبه.

الإنجليز كانوا اكرم مع الامبراطور نابليون بونابرت العبقري، حين هزموه في معركة (ووترلو). كان قد طلب أن يكون سجيناً لديهم هم وليس عند غيرهم من الدول الحليفة، التي اشتركت في المعركة، وكانوا يشعرون نحوه، حتى بين أفراد الشعب، بإعجاب خفي.

ويذكر أن (دوق ولنقتون) القائد الانجليزي، الذي هزم نابليون، كان حين يهنئه احد على انتصاره يقول (لكنه، يقصد نابليون، لم يكن موجوداً). ومعروف ان نابليون انتابته وعكة حادة أثناء المعركة، وغفا غفوة قصيرة، ولما استيقظ وجد أن قواده قد أفسدوا خططه وأضاعوا النصر الذي كاد يصير في متناول يده.

في لغة الانجليز كلمة هي Magnanimous، تنطبق على مثل هذه الظروف، حين يكون المنتصر كريماً مع عدوه حين يظفر به.

والمسلمون والعرب يعرفون هذه المعاني جيداً، وهي سمة من سمات حضارتهم. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل مكة حين فتحها، اذهبوا فأنتم الطلقاء، وأمر بإطلاق سراح ابنة حاتم الطائي، وقال: خلوا سبيلها أباها كان يحب مكارم الأخلاق.

انما لا ريب أن رئيس العراق المخلوع ليس مثل أبي عبدالله الصغير، فهذا رغم ضعفه وخور عزيمته، لم يجترح أياً من الجرائم التي يقال إن صدام حسين قد اجترحها، وبينه وبين نابليون العبقري بعد ما بين المشرقين.

لم يكن نابليون يعذب أو يقتل أعداءه. بل كان يصطنعهم لخدمته، وكان يستعين برجال يكرههم ويعلم حق العلم أنهم يكرهونه، وكان يقول لـ (تاليراند) وزير خارجيته العتيد: إنني أعلم أنك عبارة عن كيس مملوء بالقذارة، لكنني أحتاج إلى خدماتك.

كان نابليون رجل دولة. وقد حكم دولاً وبنى دولاً، ووضع تشريعاً لا يزال ساري المفعول إلى اليوم، صدام حسين لم يكن

رجل دولة، كان منذ أول عهده، كأنه رئيس عصابة. بل كان أسوأ، لأنه حتى العصابات، كما نعرف من تاريخ الـ(مافيا) لها اعراف وقوانين وحدود لا تتجاوزها. لا يقتلون جزافاً ولا (يصفّون) أعوانهم إلا بعد أن تكتمل الأدلة ضد الواحد منهم.

كان صدام حسين سفاحاً، لكنه كان يعذب ويقتل دون منطق، ودون ضرورة تقتضيها مقتضيات بناء الدولة، ويرتكب أخطاء كل خطأ منها، حري بأن يخرب بلداً بأكمله. وقد اشتهر عن (تاليراند) قوله، هذا أسوأ من جريمة إنه خطأ.

كان أفظع من أبي العباس الملقب بـ«السفاح» وأفظع من أبي جعفر المنصور، بل أفظع حتى من الحجاج بن يوسف الثقفي الذي قال عنه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله: لو جاءت الأمم يوم القيامة بطغاتها ووضعوا كلهم في كفّة ميزان وجئنا نحن (يقصد بني أمية) بالحجاج ووضع في الكفة الأخرى لمالت كفته بهم جميعاً.

كل ذلك صحيح. لكن الرجل على اي حال كان رئيساً لدولة العراق، وقد حكمها أكثر من ثلاثين عاماً، فصار رئيساً De Facto، والأمريكان مثل الانجليز وغيرهم، قد اعترفوا برئاسته، وأكلوا وشربوا معه، واشتروا منه وباعوا له. وهم على الأرجح الذين دفعوه دفعاً إلى غزو ايران، ولعلهم هم الذين أوحوا له باحتلال الكويت.

الآن وقد وقع في قبضتهم مذموماً مدحوراً، هل كان من اللائق حسب اعرافهم وادعاءاتهم الخلقية، أن يذلّوه كل هذا الإذلال،

ويهينوه كل هذه الاهانة؟ أما كان أليق بهم أن يحلقوا شعره المشوش وذقنه، ويلبسوه ثوباً نظيفاً مما يلبس السجناء العاديون قبل ان يُظهروه للكاميرات والتلفزيونات؟

لو كان صدام حسين حكيماً، وهو لم يكن حكيماً في يوم من الأيام، لهرب إلى نواحي البصرة وترك الانجليز هم الذين يأسرونه، أغلب الظن أنهم كانوا سوف يعاملونه معاملة أفضل، ففي طبعهم وثقافتهم أنهم يعرفون كيف يتصرفون في مثل هذه المواقف التاريخية.

□ □ □

مشاهد من الجحيم الأميركي

١ ـ العرس

نشرت صحيفة الـ«غارديان» Guardian اللندنية الصادرة يوم الجمعة ٢١ مايو، تقريراً من أحد مراسليها في العراق واسمه (روري مكارثي) Rory Mc Carthy عن المذبحة التي حدثت صباح الاربعاء ١٩ من شهر مايو في حفل عرس في بلدة (مقر الديب) على الحدود العراقية السورية من جراء غارة جوية اميركية. وفيما يلي ترجمة حرفية للتقرير كما نشر في الصحيفة:

«فرغ الناس من مأدبة العرس، وقادت النساء العروسين الشابين الى الخيمة المخصصة لهما لقضاء الليلة. في تلك اللحظة سمعت حليمة شهاب اصوات الطائرات المقاتلة تدوي في السماء بصريرها الحاد المميز.

كانت الساعة العاشرة والنصف مساء في قرية (مقر الديب) النائية على الحدود السورية، عاد الضيوف الى بيوتهم على عجل اثر نهاية الحفل مباشرة، كان على (مسز شهاب) بوصفها اخت العروس ان تمضي الليلة مع زوجها واطفالها في بيت عائلة (راقت) حيث اقيم احتفال العرس. كانت من القلائل الذين نجوا من الموت في تلك الليلة. قالت أمس، وهي ترقد في سريرها في قسم الطوارئ في مستشفى الرمادي، على بعد ستين ميلاً غرب بغداد، ان الضرب بالقنابل بدأ في الثالثة صباحاً.

قالت: «أول ما خرجنا من البيت، راح الجنود الامريكان يطلقون علينا النار. كانوا يصوبون من مسافات قريبة ويستهدفوننا واحداً واحداً».

انفجرت قذيفة بجوارها حطمت ساقيها وأطاحت بها على الأرض. ظلت راقدة بلا حراك فأصابت رشة من الطلقات ذراعها الأيمن.

كانت حين خرجت تحمل أصغر أطفالها على صدرها. وكان اثنان من اولادها الصغار يعدوان خلفها. نظرت الآن وهي راقدة، فإذا الولدان قد قتلا وكانت قذيفة قد قطعت رأس أحدهما.

قالت: «وقعت في الوحل وجاء جندي أمريكي فركلني بقدمه. تظاهرت بأنني ميتة حتى لا يقتلني. كان طفلي الصغير حياً يرقد جنبي».

رواية (مسز شهاب) لحادثة الغارة الجوية على القرية تدحض الزعم

الاميركي بأنهم اطلقوا النار دفاعاً عن أنفسهم لأنهم تعرضوا لنيران من داخل بيت يختفي فيه ارهابيون، كانوا قد طوقوه.

قالت (مسز شهاب) انها رأت قبيل الفجر القوات الاميركية تدمر بيت عائلة (راقت) والبيت المجاور له وتحيلهما الى انقاض (...) حمل أحد الاقرباء (مسز شهاب) وطفلها الذي نجا من نيران الأمريكان الى المستشفى. هنالك اخبروها ان زوجها محمد، أكبر أبناء (راقت) هو أيضاً قد قتل.

كانت (مسز شهاب) تشير اثناء حديثها بيديها المخضبتين بحناء العرس، وكانت ترقد بجوارها ثلاث بنات من عائلة (راقت) مصابات اصابات خطيرة. خلود محمد البالغة من العمر عاماً واحداً فقط والتي كانت تتنفس بصعوبة عظيمة، وموزة البالغة من العمر اثني عشر عاماً، واقبال وسنها ١٥ عاماً، وكان الاطباء قد استأصلوا قدمها اليمنى.

حين أشرقت شمس يوم الاربعاء على بيت عائلة (راقت) كانت الغارة الأمريكية قد حصدت اثنين وأربعين انساناً. هذا حسب رواية الدكتور حمدي نور الالوسي مدير مستشفى (القائم) العمومي، وهو اقرب مستشفى للقرية.

كان بين القتلى سبعة وعشرون من افراد عائلة (راقت) وضيوفهم في حفل العرس وحتى اعضاء الفرقة الموسيقية ومنهم حسين العلي من الرمادي وهو من اشهر المغنين في الجانب الغربي من العراق. قال الدكتور الالوسي ان احد عشر من القتلى كانوا نساء واربعة عشرة طفلاً.

قال لنا على التليفون: «أريد ان اعرف لماذا تعمد الأمريكان الهجوم على هذه القرية الصغيرة، هؤلاء الناس كانوا مرضاي، تحت عنايتي الطبية. إنني أعرفهم جميعاً واحداً واحداً، لماذا وقعت هذه الكارثة؟».

لكن السلطات العسكرية الأمريكية، وهي تواجه أدلة قاطعة على فضيحة أخرى في العراق، ظلت تصر على تقديم صورة أخرى مغايرة تماماً لما حدث في تلك الليلة.

□ □ □

إسرائيل والصديق الجاهل

مستحيل أن يجد اليهود في فلسطين الأمن والطمأنينة بالاعتماد على دولة وراء البحار تبعد عنهم بأكثر من ثلاثة آلاف ميل. مهما بلغت حماسة تلك الدولة لحمايتهم، ومهما بلغ جبروتها وقوتها. الحماسة معرضة لأن تفتر، والقوة معرضة لأن تضعف أو تزول.

وهي على أي حال، دولة (ناشئة) ما تزال في طور التكوين، وهويتها لم تتبلور بعد. ومعروف أن في سايكلوجية الولايات المتحدة منذ نشأتها، نزوع قوي يظهر بعد كل وقت وآخر، نحو (العزلة) والابتعاد عن قضايا (العالم القديم). وهل توجد على امتداد التاريخ قضية أقدم أو أصعب من قضية اليهود؟

خلاص اليهود المحاصرين في فلسطين، كما يجمع كل العقلاء من المؤرخين والمفكرين، وكل المعنيين حقيقة بالمأساة الوجودية للشعب

اليهودي، هو في العالم العربي والاسلامي. انها حقيقة بسيطة واضحة وضوح الشمس، انما لا يراها، أو يرونها ويرفضونها، اليهودي الصهيونيون، الذين أعمت عيونهم الأيدولوجية التعيسة التي كبلوا انفسهم بها من جراء معاناتهم الطويلة في أوروبا.

العالم العربي والاسلامي، عالم قريب جداً منهم، اقرب اليهم من حبل الوريد. ويحيط بهم من الجهات كلها، ولا مهرب منه الا إليه.

التعايش مع هذا العالم، ليس شيئاً جديداً عليهم. انه امر جربوه على امتداد قرون متطاولة، لم يعيشوا غرباء محتقرين بل وجدوا مقداراً من الاحترام والأمن والاخاء الانساني الحقيقي، كما لم يجدوا في أي مكان آخر في العالم.

كيف لا، وما هم في نهاية الأمر، إلا فرع صغير من الدوحة السامية الوارفة الظلال التي أصلها العرب؟ كيف لا والديانة المسيحية والدين الاسلامي الحنيف، انما هما امتداد وتكملة لما عندهم من الكتاب؟

الأرض العربية عرفتهم من قبل ورحبت بهم من سواحل اليمن حتى تخوم بلاد الشام. ومن وادي النيل حتى بلاد الشمال الافريقي. وحتى حين عبر العرب والمسلمون البحر المتوسط، ودخلوا اسبانيا ذهب اليهود معهم. وحين خرجوا من الاندلس لم يستطع اليهودي العيش من دونهم وخرج أكثرهم مع العرب والمسلمين. وقد كانت حقبة تعايشهم معهم في الاندلس، حقبة

مضيئة في تاريخهم صار يضرب بها المثل الى اليوم، وظلوا يبكون على فقدها بقدر ما بكى العرب على ضياع الاندلس.

هذا كله واضح مثل الشمس. ولكن لا تراه عيون اليهود الصهيونيين لان الفكر الصهيوني فكر غريب على المزاج اليهودي وغريب على الوجدان اليهودي. انه فكر (عدمي) بائس قاتم، ابتدعه مفكرون يهود اسمياً،، ولكنهم ليسوا كذلك في الحقيقة، مثال (بسكر) و(هيرتزل).

ان من أفظع وألأم ما فعله الصهيونيون بعد استيلائهم قسراً على أرض فلسطين، انهم في سعيهم البائس كي يجدوا مبررات خلقية لغزو استعماري صارخ، قاموا بتشويه التأريخ العربي والاسلامي تشويهاً لم يتعرض لمثله تاريخ أي أمة على امتداد العصور.

سخروا نفوذهم الواسع، وسيطرتهم على وسائل الاعلام والاتصال، خاصة في امريكا، في الترويج لصور عدوانية بشعة عن العرب والمسلمين، لا علاقة لها بالواقع. وقد امتد المسخ والتشويه حتى الى حقبة التعايش اليهودي العربي في اسبانيا.

إنما من حسن الحظ انه يوجد مؤرخون منصفون، حتى من اليهود، درسوا تلك الحقبة دراسة عميقة، وخلصوا الى نتائج مختلفة تماماً عن تلك التي تروج لها الدعاية الصهيونية. مؤرخون أمثال (دوزي، ولغي، برفنسال) و(محمود مكي) و(منتقمري وات)، كلهم يؤكدون ان المعاملة الكريمة التي وجدها اليهود من العرب والمسلمين في الاندلس لم يكن لها مثيل، وانها نموذج فريد في التعايش بين الاعراق والاديان والثقافات.

خلاصة الأمر، أنه أسهل وأجدى لليهود القابعين وراء حيطانهم العازلة في فلسطين، لو حولوا أنظارهم عن صديقهم الجاهل وراء البحار ونظروا حولهم بنية صادقة، الى العالم الذي عرفهم وعرفوه، وسعوا الى فهمه والتصالح معه والعيش في أكنافه الواسعة.

□ □ □

بيرنارد لويس بين التحيز والإنصاف

لا بد من القول، أن بيرنارد لويس، سواء كان متحيزاً ضد الإسلام أم لا، فإن لديه حداً أدنى من الحياد العلمي لا يستطيع أن يتعداه، والا أساء إلى سمعته العلمية وأضر بمركزه بوصفه مؤرخاً يعتد به.

ها هنا رجل ليس من شاكلة الكاتب الانجليزي (في. أس. نايبول) الذي أصدر منذ عدة سنوات كتاباً أسماه (بين المؤمنين). كله عبارة عن تزييف وإساءات متعمدة للإسلام. ولا هو من شاكلة الكاتب البريطاني الهندي سلمان رشدي صاحب الرواية المقبوحة الذكر (آيات شيطانية) التي لم تزد على كونها نشرة دعائية تافهة من العمى والضلال والبهتان، من النوع الذي يجده الإنسان في الكتب الكنسية في العصور الوسطى، في الافتراء على الاسلام.

بيرنارد لويس طراز مختلف. وهو حين يكتب عن الإسلام، لا بد

أنه يضع في حسابه ان مستشرقين أوروبيين مرموقين سبقوه بالكتابة عن الاسلام بإنصاف وأحياناً بإعجاب وأحياناً بمحبة.

فعلى سبيل المثال لا الحصر (مونتقمري وات) المستشرق الاسكتلندي، وهؤلاء دائماً تجد لديهم الإنصاف منذ توماس كارلايل، صاحب كتابي (محمد في مكة) و(محمد في المدينة)، والمؤرخ البريطاني الجهبذ (أرنولد توينبي)، والعالمين الفرنسيين (ماكسيم رودنسون) و(جاك بيرك)، وهذا الأخير، قضى، كما هو معروف، السنوات الأخيرة من حياته في ترجمة القرآن الكريم الى اللغة الفرنسية، ترجمة حديثة عميقة شاملة.

ولن أنسى أن أذكر العالمة التي فاقتهم جميعاً في عميق فهمها للإسلام وحبها للحضارة الإسلامية، تلكم هي المستشرقة الالمانية العظيمة (آنا ماري شِمِل) التي قضت ردحاً من عمرها أستاذة في جامعة (هارفرد) على مرمى حجر من بيرنارد لويس في جامعة (برنستون).

لا توجد في كتابات بيرنارد لويس إساءات متعمدة للإسلام، ولا تزييف للحقائق، وإن كان لديه كما لاحظ المرحوم ادوارد سعيد (تحيز ضد الاسلام) فهو تحيز مدفون بمهارة عظيمة في طيات الكتب بحيث يصعب على القارئ أن يتبينه لأول وهلة. وفي ظني ان هذا هو الذي عناه ادوارد سعيد بقوله:

«يتظاهر بيرنارد لويس في مؤلفاته أنه لبرالي وأكاديمي محايد...».

إنما هل هو (يتظاهر بالحياد) أم انه يكون فعلاً محايداً ومنصفاً حين

يكتب؟ وحين يتحدث في وسائل الاعلام في أمريكا يكون مجحفاً وغير منصف. فهو، كما لاحظ بعض من كتبوا عنه ذو جانبين في طبيعته. جانب محب، أو على الأقل معجب بالحضارة الاسلامية، وجانب آخر ظالم وغير منصف، يدخل في خصام مع الجانب الآخر المعجب وربما المحب.

يقول بيرنارد لويس في كتابه (أزمة الاسلام) الذي صدر العام الماضي، ووجد رواجاً عظيماً في أمريكا هو وكتابه (أين حدث الخطأ) وكتابه (جذور الغضب الاسلامي):

«يجب ألا نبالغ في حجم المشكلة. إن العالم الاسلامي أبعد ما يكون عن الاجماع في رفضه للغرب. وليست الأقطار الاسلامية في العالم الثالث هي وحدها المعادية للغرب.

ما تزال توجد أعداد كبيرة، بل الغالبية أحياناً من المسلمين الذين تربطنا بهم علاقات قوية، ثقافية وأخلاقية واجتماعية وسياسية، وتجمع بيننا طموحات مشتركة، ما يزال يوجد تأثير غربي واضح في ديار الاسلام، وبعض الدول الاسلامية حليفة للغرب، ولكن لا شك أنه توجد كراهية متزايدة للغرب تزعج الأمريكان وتخيفهم، وفوق كل شيء تصيبهم بالحيرة».

ويقول في موضع آخر:

«الإسلام من حيث كونه إسلاماً، ليس معادياً للغرب بالضرورة، توجد أعداد متزايدة من المسلمين هنا وهناك، لا يرغبون في شيء

أكثر من اقامة علاقات ودية مع الغرب، وفي تطوير مؤسسات ديموقراطية في بلادهم.

ولكن في المقابل، توجد أعداد كبيرة أيضاً من المسلمين، خاصة الذين نصفهم بأنهم (أصوليون) يحسون بالعداء نحو الغرب، وهم أعداء خطرون. وذلك ليس لأننا نحن الذين نسعى الى عداوتهم، بل لأنهم هم الذين يبحثون عن أعداء».

□ □ □

ملتن فريدمان صوت الأقوياء

سادت لفترة طويلة أفكار الاقتصادي الاسكتلندي (آدم سمث) صاحب كتاب (بحث في طبيعة ثروة الأمم واسبابها) الصادر عام ١٧٧٦، والكتاب يعرف باختصار بـ(ثروة الأمم). إنه الكتاب الذي نظّر للنظام الرأسمالي، وتحدث عن قانون العرض والطلب الذي قال إنه يتحكم في طبيعة النشاط الاقتصادي.

وبعد حقبة طويلة ظهر في أوائل القرن العشرين الاقتصادي الانجليزي العملاق (جون مينارد كينز) الذي قلب أفكار (آدم سمث) رأساً على عقب.

جاء في أعقاب الحرب العالمية الأولى، في زمن اضطرابات وأزمات، وكان هو نفسه إنساناً مضيئاً متناغماً مع مآسي البشرية، فيه سماحة وأريحية، عاش بين مجموعة من الكتاب الموهوبين

والفلاسفة والشعراء والرسامين، الذين تزعمتهم الكاتبة العبقرية (فيرجينيا وولف) في حي (بلومزبري) في وسط لندن، فانعكست تلك السماحة والأريحية على نظرياته وفكره في الاقتصاد.

رفض أفكار (آدم سمث) وحوارييه الذين وضعوا ثقتهم في (قوى السوق)، وحركة العرض والطلب، وطالب بتدخل الدولة لتنظيم الاقتصاد وحماية المجتمع. تطابقت أفكاره الانسانية، مع ظروف العالم ومتطلبات الناس بعد الحرب فأصبح له نفوذ عظيم. وفي بريطانيا بعد فوز حزب العمال وتأليف حكومتهم برئاسة (كلمنت أتلي) قامت ما يسمى بـ(دولة الرفاه العام) وكان أثر كينز واضحاً على سياساتها.

ووصل تأثير كينز حتى بلاد اسكندفانيا، خاصة في السويد التي أقامت نظاماً اجتماعياً يكاد يكون تطبيقاً كاملاً لأفكار (جون مينارد كينز). وظهر عندهم عالم الاقتصاد الكبير (قنر ميردال) الذي سار على خطى كينز.

وحتى امريكا لم تبعد عن تأثير (كينز) فقد استعان به (روزفلت) في محاولة الخروج من حالة الانهيار الاقتصادي الذي حل بأمريكا في العشرينيات من القرن الماضي، وكاد يؤدي إلى تمزيق جسم المجتمع تمزيقاً كاملاً. ويمكن القول إن أفكار (كينز) هي الأفكار الأهم في الاقتصاد حتى اليوم، حتى المعارضون لأفكاره، ما يزالون يدورون في فلكه.

كان المتوقع ألا ينسى الامريكان أبداً تجربة الانهيار الاقتصادي في العشرينيات، الذي كاد يقوض أسس دولتهم. ملايين العمال

العاطلين عن العمل، إفلاس البنوك والشركات الكبرى في نيويورك وسائر المدن، طوابير الجوعى يصطفون أمام محلات الطعام بالمجان. كاد الناس يفتك بعضهم ببعض، وإذا كانت الأجيال الجديدة من الأمريكيين لم تر تلك المشاهد رأي العين، فقد ذكرتهم بها السينما والتلفزيون. هذا وقد ظهر في أمريكا عدد من الاقتصاديين، كان أهمهم وأنصعهم بياناً (جون كنِت ڤالبريث) ساروا على خطى (كينز) وأخذوا يدعون إلى الحد من غلواء النظام الرأسمالي الصارخ، ويطلبون أن تتدخل الدولة لاحقاق العدل في توزيع الثروة والأخذ بيد الضعفاء والحد من جشع الأقوياء.

إنما تجربة (روزفلت) والمحاولة القصيرة للرئيس (كندي) والمحاولات الفاترة للحزب الديموقراطي لم تترسخ في أمريكا وتصبح نهجاً ثابتاً. لم تلبث أمريكا أن عادت إلى السلوك الذي يتفق مع طبيعتها ومزاجها. عادت إلى نظام اقتصادي (مفتوح) تماماً، يخضع فقط لقوانين العرض والطلب، ويحتفي بالربح والقوة والنجاح والغلبة.

نظام لا يكترث للضعيف، الضعيف عندهم ليس (أمير الركب) كما في تراثنا إذا سقط من الإعياء، فإن القافلة تمضي في سيرها غير عابئة به.

وهو بطبيعة الحال، وضع يغري به سعة الأرض، وكثرة الثروة ورفاهة العيش، وتزايد الثقة في النفس، حتى ان الثروة تبدو كأنها ثروة أبدية لا تنفد، قادرة على استيعاب درجة هائلة من الإسراف والتبديد وسوء التدبير. ولكن الأمر في النهاية لا يبعد عن قول الشاعر المصري الشعبي:

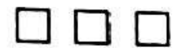
جبال الكحل تفنيها المراويد
وكثر المال تفنيه السنين.

هذا وقد كان من الطبيعي أن تجد أمريكا، أو بالأحرى النخبة الذين بيدهم مقاليد الأمور، صوتاً يعبر عن مزاجه ويعبر عن طبيعتها. وجدت (ملتن فريدمان) أو بالأحرى أنها صنعته كما تصنع نجوم السينما وأبطال الملاكمة، وجد مثله آخرون يبشرون بالأفكار نفسها، وكان أبرزهم (فريدريش فون هايك) صاحب كتاب (الطريق الى العبودية)، لكن (ملتن فريدمان) صادف هوى لدى وسائل الاتصال، وهي كما هو معروف امتداد للنظام الرأسمالي المتطرف وأبواق له.

ها هنا عالم اقتصادي يقول كلاماً ظن الناس أنهم لن يسمعوا مثله بعد تجربة الانهيار الاقتصادي المريرة في العشرينيات يقول:

(ليس مطلوباً من الحكومة ان تفعل اكثر من ضمان تنفيذ العقود وان تشجع التنافس وان تضع هيكلاً مصرفياً كفياً).

هذا في كتابه (الرأسمالية والحرية) وقد عدد في الكتاب أربعة عشر نشاطاً تقوم بها الحكومة قال إنه لا داعي للحكومة ان تقوم بها.



عزيزي جورج

أقدم إلى القارئ مجموعة أخرى من الرسائل الى الرئيس (جورج بوش)، وكانت صحيفة الـ(جارديان) البريطانية قد نشرتها في ملحق خاص، وهي من سياسيين وكتّاب وشعراء وصحافيين وأناس عاديين.

في ما يلي رسالة من مستر، أنتوني ودجوود بن، كان من قادة حزب العمال وعمل وزيراً في حكومات عمالية متعاقبة، واشتهر انه أول بريطاني يتخلى عن لقب (لورد)، الذي ورثه عن أبيه، «لورد ستانسقيت»، وقد تقاعد طواعية من مجلس العموم أخيراً.

«عزيزي السيد الرئيس بوش،

المظاهرات التي تُنظم خلال زيارتك لمدينة لندن، مظاهرات سلمية

جادة، تحظى بتأييد شعبي كبير، وذلك لأنها تعبّر عن السخط على النتائج البشعة التي ترتّبت على غزوك غير القانوني لدولة العراق واحتلالها واستعمارها.

هذه المظاهرات ليست موجهة ضدك وحدك، ولا ضد الأميركيين، لأن الحكومة البريطانية شريكة لك في المسؤولية (...). قالت صحيفة الـ«نيويورك تايمز»، أوائل هذا العام، إن حركة السلام في العالم، صارت (قوة عظمى «سوبر باور») وقد صدقت لأن اعداداً متزايدة من الناس في العالم، أدركوا مخاطر الامبريالية الاميركية، وعقدوا العزم على مقاومتها.

لعل زيارتك تساعدك على أن تفهم أنه ليس لك أي سند شعبي في بريطانيا، ونرجو أن يشجع استقبالنا لك الشعب الاميركي على ان يسقط حكومتك التي لا تعتمد إلا على المحافظين المتطرفين الذين يمسكون اليوم جميع خيوط السلطة الحقيقية في واشنطن، بالإضافة الى الشركات العملاقة عابرة القارات التي موّلت حملتك الانتخابية».

وهذه الرسالة من كاتب وقانوني معروف هو (مستر جون مورتمر):

«الحرب ضد العراق، لم تفعل شيئاً، إلا أنها زادت الأعمال الارهابية في العالم، وأججت نيران الحقد والكراهية ضد أمريكا وبريطانيا.

إنك تتحدث عن جلب الديموقراطية الى العراق، رغم أنك نفسك لم تُنتخب انتخاباً ديموقراطياً، ولم تجرؤ على فعل أي شيء لردع اسرائيل.

وقد تسببت في موت أعداد لا تحصى من مواطنيك، ارحل يا سيادة الرئيس! ارجع الى بلدك».

وهذه الرسالة من الدكتور (تموثي قارتن آش)، وهو زميل في كلية (سانت أنتوني) بجامعة أكسفورد؟

«عزيزي السيد الرئيس،

أود أن أوضح لك أمرين، أولاً، أغلب البريطانيين يحبون أمريكا، وثانياً انهم لا يحبون طريقتك في معاملة دول أوروبا ودول العالم (...) وأصارحك، أن غالبيتهم كانت ضدك منذ أول يوم صرت فيه رئيساً، ورغم ذلك، فقد أحسوا بعطف عظيم نحوك ونحو أمريكا بعد هجوم ١١ سبتمبر وكثيرون منهم ذرفوا الدموع يومئذ.

لكنك لسوء الحظ بدّدت ذلك الرصيد العظيم من العطف، وذلك بسبب تأييدك الأعمى لرئيس وزراء اسرائيل شارون، في حربه الشرسة وقهره الفظيع للفلسطينيين.

وأيضاً بسبب حربك ضد العراق، أين أسلحة الدمار الشامل التي زعمت ان العراق يمتلكها؟ وأين الديموقراطية التي بشرت بها العراقيين وقلت انه سوف تكون مثلاً يحتذى في الشرق الأوسط كله؟

أن أغلب الناس في بريطانيا سواء تظاهروا ضدك أو لم يفعلوا، لا يضمرون أي كراهية لأمريكا، لكنهم فقط يريدون أمريكا الاخرى التي لا تمثلها أنت. تخيل أنهم أمريكيون ديموقراطيون يعيشون خارج أمريكا، يدلون بأصواتهم في الانتخابات ضدك».

وهذه رسالة من قارئ من قراء صحيفة الـ«جارديان» اسمه (وليم دامبيير):

«عزيزي جورج،

أرجوك، أرجوك، أرجوك، أترك الملكة وشأنها، لا تطردها من قصر بكنجهام، ثم تهب القصر لشركة (هالبيرتن) Haliburtun، كي تهدمه، وتبني مكانه عمارة من نوع آخر. مع تحياتي، وأهنئكم بعيد الميلاد والعام الجديد».

□ □ □

النذالة والأنذال

ربما لم يعرف الانجليز في تاريخهم الحديث نذلاً في نذالة (كابتن جيمس هيووت James Hewit) عشيق ليدي ديانا أميرة ويلز. كان يجب أن يكون (جنتلمان) بحكم نشأته ودراسته وعمله.

ولُد عام ١٩٥٨ في أسرة من ضباط الجيش. كان أبوه ضابطاً وكان جده ضابطاً. أدخلوه إحدى مدارس أولاد الذوات في (ملفيلد Millfield) في مقاطعة سمرست، وهي من مرابع الارستقراط والأثرياء، لم يظهر عليه أي نبوغ في دراسته. ورغم ذلك دخل أكاديمية (ساندهيرست) العسكرية الشهيرة. وكان ذلك بلا شك بسبب ارتباط أسرته الطويل بالجيش. وحين تخرج منها التحق بكتيبة الـ (لايف غاردز Life Guards)، وهي كتيبة عريقة يكثر الإقبال عليها، لأن مهمتها هي حماية الجالس على العرش، ويكون أفرادها عادة من أولاد الارستقراط.

في ما بعد قاد فرقة من (الحرس الاسكتلندي) عام ١٩٩١ في حرب الخليج الثانية لإخراج العراق من الكويت، ولم يكن له اي دور يُذكر. بعد الحرب حاول مرتين ان يُرقى الى رتبة (ميجور) ولكنه سقط في الامتحان وخرج من الجيش بعد خدمة سبعة عشر عاماً برتبة (كابتن).

لم يكن يحسن شيئاً إلا ركوب الخيل. وقد بدأت معرفته بالأميرة ديانا عام ١٩٨٥ في حفل في حي (مي فير)، الارستقراطي، كانت في الخامسة والعشرين من العمر وكان هو في الثامنة والعشرين.

رغم الوهج الظاهري والبذخ والابتسامات الساحرة، كانت الأميرة ديانا في الواقع، كما اتضح بقسوة في ما بعد، امرأة معذّبة تعيسة الحظ. في الوقت الذي تعرفت فيه على (جيمس هيووت) كان زواجها من ولي العهد الأمير تشارلز، قد هبط إلى أتعس حالاته، وصار يوشك على الانهيار بل انه انهار بالفعل بعد ذلك بقليل.

كانت من أسرة (سبنسر)، وهي من الأسر الارستقراطية العريقة، ورغم ذلك لم تستطع أن تتأقلم مع الطقوس الصارمة للعائلة المالكة. فبالاضافة الى الفارق في السن بينها وبين زوجها الامير تشارلز، فقد كانت أمزجتهما واهتماماتهما مختلفة. فهو إنسان أميل الى الجد، عميق الثقافة له اهتمامات بالتاريخ والفلسفة والأديان والثقافات الانسانية المتنوعة.

أما هي فقد كانت بحكم صغر سنها، وتعليمها المحدود، تميل إلى الانطلاق واللهو وتحب الحفلات والرقص، لكنها في السنوات

الأخيرة من حياتها أخذت تهتم بالأعمال الخيرية والإنسانية وحققت في ذلك نجاحاً كبيراً حببها الى قلوب الناس. وقد ظهر ذلك الحب بقدر لم يسبق له مثيل في موتها المأساوي.

بعد تعرفها على (كابتن جيمس هيووت) بقليل وظّفته لديها ليعلمها ويعلم ولديها ركوب الخيل، ولم تلبث العلاقة أن تطورت إلى علاقة غرامية. كما كشف عن ذلك (هيووت) نفسه. فعل ذلك في كتاب نشره بعد نهاية علاقتهما مباشرة عام ١٩٩٢.

في هذا الكتاب الذي ساعدته على كتابته صحافية محترفة، يصف (هيووت) أوصافاً صريحة جداً تفاصيل علاقاته بامرأة كانت وما تزال في عصمة ولي العهد. وكان القانون الانجليزي في وقت ليس بعيداً يعاقب على علاقة مع زوجة وليد العهد بالإعدام.

هبت في وجه (هيووت) عاصفة من الغضب والاستنكار والاشمئزاز، ليس فقط من الطبقة الارستقراطية، ولكن ايضاً من قبل غالبية الشعب، الذين بدأوا يحبون الأميرة، ويحولونها الى (أيقونة) كأنها شخص مقدس، وينظرون إليها بعطف على أنها إنسانة مظلومة معذبة.

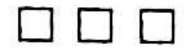
إنما النذالة القصوى حدثت بعد مصرع (ديانا) المأساوي. نشرت الصحف أن (هيووت) كان في منتجع (ماربيا) حين بلغه النبأ. كان يتهيأ للذهاب مع أصدقائه لمشاهدة مصارعة ثيران. قال: «هذا سوف يفسد عليّ بقية يومي». وسارع بالهروب من (ماربيا).

ثم أضاف نذالة إلى نذالة، أنه الآن يحاول أن يبيع للنشر الرسائل

الغرامية التي كتبتها له الأميرة المسكينة، ويطلب فيها أربعة ملايين جنيه استرليني، لكنه الى الآن لم يجد مشترياً.

حتى صحف الفضائح في لندن التي يسمونها (صحف المجاري القذرة) أبت أن تشتريها. حتى الناشرين الأمريكان، وهم عادة لا يتورعون عن أي شيء في سبيل الربح، رفضوا أن يشتروها.

أصبح (هيووت) مكروهاً كراهية لم تحدث لأي رجل في بريطانيا من قبل. وقالوا ان صفة CAD لا تكفي لوصفه، فأضافوا إليها RAT أي (فأر) أو (جرذ).



هزيمة الـ (دايلي تلغراف)

انتصر مستر جورج ڤالوي نصراً مدوياً بمعنى الكلمة على صحيفة الـ«دايلي تلغراف». صدر حكم المحكمة العليا في لندن يوم الخميس الثاني من شهر ديسبمر في قضية إساءة السمعة التي رفعها النائب البرلماني ضد الصحيفة.

قال مستر ڤالوي للصحفيين المتجمعين خارج المحكمة والحشد الكبير من مؤيديه: «إنني سعيد أنه ما يزال يوجد في انكلترا، ركن واحد صغير، لم تصل اليه يد الفساد. ركن ظل محافظاً على استقلاله وامانته ونزاهته. هذا الركن هو قاعة المحكمة هذه».

كان مستر ڤالوي سعيداً حقاً، لا تكاد الدنيا تسعه من الفرح. قال في مقابلة صحفية فيما بعد: «إنني قامرت بكل شيء. لو أنني خسرت القضية. كنت سوف أخسر كل شيء. سمعتي وعملي

وبيتي وكل ما أملك. وكانوا سوف يعلنون افلاسي، ومعنى ذلك أنني لن أجد أحداً يعطيني أي عمل».

انها قضية اعتبرتها الصحافة البريطانية علامة فارقة وسابقة قانونية خطيرة، سوف تؤثر في اسلوب الصحف في معالجة كثير من القضايا. كانت الصحيفة معتمدة على وثائق زعمت ان مراسلها في العراق قد عثر عليها في رُكام وزارة الخارجية في بغداد. قد سارعت إلى نشر مقالات صاخبة تتهم فيها النائب البرلماني بأنه عميل للحكومة العراقية وتدمغه بالخيانة. وقد وصف مستر «جورج قالوي» الوثائق منذ البداية بأنها مزورة.

لم تنجح الصحيفة أثناء المحاكمة في إثبات صحة الوثائق، فلجأت إلى حيلة أخرى.

قال محامي الصحيفة إنها على أي حال ليست ملزمة بإثبات صحة الوثائق، فبناء على ما يعرف بمبدأ «الامتياز المقيد» Gualified Priuilege، فإنه يكفي ان النشر كان موضوعياً ومحايداً ويخدم المصلحة العامة.

هذا وقد كان مجلس اللوردات، وهو المحكمة الأعلى في البلاد، قد أقر هذا المبدأ، مشروطاً بعدة شروط، في قضية رفعها رئيس وزراء ايرلندا السابق ضد صحيفة الـ«صنداي تايمز» وهي من أخوات الـ«دايلي تلغراف»، وهي تتلخص فيما يلي:

١ ـ مدى خطورة التهمة، ٢ ـ الى اي حد تكون الوثائق المنشورة ذات علاقة مباشرة بالصالح العام، ٣ ـ مدى مصداقية المصدر، ٤ ـ ما هي الخطوات التي اتخذت للتأكد من صحة

الوثائق، ٥ ــ هل يوجد مبرر للاسراع في النشر، ٦ ــ هل اتيح للمدعى عليه أن يطلع على التهمة الموجهة له ويبدي رأيه فيها، ٧ ــ هل الروح الغالبة على المادة المنشورة روح موضوعية محايدة بالفعل.

وجدت المحكمة العليا، ان صحيفة الـ«دايلي تلغراف» لم تتقيد بأي من هذه الشروط، فالمقالات المنشورة ضد مستر «قالوي» لا يمكن ان توصف بأنها موضوعية او محايدة، وقد سارعت الصحيفة الى النشر في خلال يومين من عثورها على الوثائق دون مبرر مقنع، وهي لم تطلع مستر قالوي على التهم الموجهة له ولم تتح له الفرصة ليرد عليها.

وانها قد أساءت الى سمعته إساءة بالغة بالفعل، وقال القاضي الذي أصدر الحكم: «صحيح ان مستر قالوي سياسي متمرس في غمار العمل السياسي، ولا بد أنه تعود على النقد الخشن أحياناً إبان خوضه للمعارك السياسية، انما هذا لا يعني ان جلده قد غلظ الى حد انه لم يعد يحس بالجرح والألم حين يصل النقد الى اقصى عمق، في نزاهته وسمعته السياسية».

وأضاف القاضي: «إن الاتهام بالخيانة ليس وصفاً عادياً يمكن ان يتقبله الانسان باستخفاف، حتى في المعارك السياسية».

هذا وقد حكمت المحكمة على صحيفة الـ«دايلي تلغراف» بأن تدفع تعويضاً لمستر قالوي قدره مائة وخمسون ألف جنيه استرليني كذلك تتحمل الصحيفة معظم نفقات المحاكمة، ويقدر أن الصحيفة خسرت نحو مليوني جنيه استرليني في هذه القضية.

□ □ □

فهرس الأعلام

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

فهرس الأماكن

مختارات

الطيّب صَالح

يزعم بعض الإنجليز أن مفردات لغتهم مصادرها ثلاثة: الإنجيل وشكسبير ولعبة الكرِكت. من بين مصطلحات لعبة الكرِكت: «All Rounder»، وتعني اللاعب «الشامل»، وتطلق على اللاعب المكتمل اللياقة والذي يجيد اللعب بمهارة في كل موقع. الطيب صالح - في رأيي - كاتب «شامل». مكنته ثقافته العميقة والمتنوعة واطلاعه الواسع باللغتين العربية والإنجليزية على علوم اللغة، والفقه، والفلسفة، والسياسة، وعلم النفس، وعلم الأجناس، والأدب، والشعر، والمسرح، والإعلام، أن يروي، ويحكي، ويخبر، ويوصف، ويحلل، ويقارن، وينقد، ويترجم بأسلوب سهل عذب ينفذ إلى الوجدان والفكر كما تشهد هذه المجموعة من «مختارات من الطيب صالح».

محمود صالح عثمان صالح